

٤

الروائع

ابن بطوطة

تحفة النظار

في غرائب الامصار، وعجائب الاسفار

١

الطبعة الرابعة ١٩٥٠

الروائع

آراء الادباء من شرقيين ومستشرقين (تابع)

رأي ناقد للاستاذ رفائيل بطي

قال في مقدمة مقال طويل حلل فيه ستة اجزاء من « الروائع » ١٠-١٦) :

« كتبت مقالاً في احدى المجلات البغدادية قبل مدة اعرف القراء بمؤلف مبتكر قام بتأليفه الاستاذ فؤاد افرام البستاني الباحث الادبي القدير باسم « الروائع » يحلل فيه باسلوب علمي موجز الشخصيات البارزة التي تركت اثراً بليغاً في الفصاحة العربية. وذكرت من اجزاء كتابه تسعة.

« وقد ظل المؤلف يواصل اصدار الاجزاء الباقية من خزانته الطريفة، وبين يديّ ستة من الاجزاء الجديدة وهي تحاكي سابقاتها من حيث الاسلوب والتدقيق في البحث وايراد المختارات الشائقة. والحق يقال انها افضل طريقة لتخريج النشء في الادب العربي. »

جريدة العراق ، بغداد ، ٦ ك ١ ١٩٢٨

رأي الاستاذ بشاره الخوري

« الروائع فصول يستقل كل واحد منها بكبير من شعراء العربية وعلمائها يصدرها حضرة الاستاذ القدير فؤاد افندي افرام البستاني بعد ان يتناول الشاعر او العالم الذي يدرسه من جميع نواحيه ، مستعيناً على ذلك بفكرة نيّرة ، وكفاءة مشهودة ، ومراجعات عدة . حتى جاءت « روائعه » ارقى درس عن الاشخاص الذين يدرسهم ، تغني الطالب عن كثير من المجلدات. »

البرق ، بيروت ، ٦ آب ١٩٣٠

ابن بطوطة

و

تحفة النُظّار

في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

١

درس ومنتخبات

بقلم

فواد افرام البستاني
مدير دار المعلمين والمعلمات
أستاذ الأدب ومؤسسات المجتمع العربي
في معهد الآداب الشرقية

طبعة رابعة
منقحة ومزيد عليها

منشورات الآداب الشرقية

بيروت

١٩٥٠

ظهرت الطبعة الاولى من هذا الجزء في حزيران ١٩٢٧
والطبعة الثانية في حزيران ١٩٣٨
والطبعة الثالثة في تشرين الثاني ١٩٤٦

الطبعة الرابعة – الألف الثامن عشر

المطبعة الكاثوليكية ، بيروت

كانون الثاني ١٩٥٠

رحّالة المسلمين

قبل ابن بطّوطة

اتسع نِطاق السلطنة الاسلامية ، وتشعَّبت سلطة الخلافة العربية بين الكثيرين من الملوك والامراء الشعوبيّين ، فانفرد بعضهم بالحكم الزمني ، واستقلّ غيرهم تماماً في المقاطعات السحيقة . فكان همّ الخلفاء حفظ وَحدة ما بقي تحت سلطتهم من البلاد ، وتوثيق عرى الألفة بين مختلف أمراء الاسلام ، لردّ هجمات الاعداء الخارجيين ، او لقمع ما قد يحدث من الثورات الداخلية . وكلّها أمور لا يتسنّى منالها بسهولة الّا اذا عُرفت البلاد سهلُها وجبلُها ، ودُرست السُّبُل سالكُها ووعرُها ، وأُمّنت طُرُق المواصلات بَرّيها وبحريها ، ونُظِّمت اللوائح بحصولات المقاطعات فقُرّر الخراج والمَكس بحكمة وعدل . فكان ذلك الدافع الاول لجوب البلاد الاسلامية ، ودرسها ، وتأسيس مصلحة البريد الجزيلة الفائدة بما انتجته من قياسات الأبعاد ، وتحديد البلدان ، وتسهيل الاسفار ، ووصف الأقاليم ، فزيادة المعلومات الجغرافية . وكفانا ذكر اسفار ابن خُرداذبَه (†٩١٢) واليعقوبي (القرن العاشر) وقُدامة (†٩٢٢) والبَلخي (†٩٣٤) وابن حوقل (†٩٨١) ومؤلفاتهم القيّمة ، برهاناً واضحاً على تأثير هذا السبب الإداري في توسيع نطاق الرحلات الإسلامية .

غير انه لما كانت غاية الامراء الاولى توثيق عرى الاتحاد بين البلدان الاسلامية ، كان من الصعب على القائمين بالرحلات الرسمية ان يتجاوزوا هذه المناطق الى غيرها من بلاد « الكفّار » . فقام بسدّ هذه الثلمة تجّار

المسلمين من عرب وغير عرب ، واخذوا بالرحلات العديدة الخطرة الى ما وراء بلادهم في طلب البضائع النادرة او لبيع ما عندهم من المحصولات. فوصلوا الى بلاد الفرو في الشمال ، وبلاد العاج والحرير والأفاويه المختلفة في الشرق ، وطلبوا المعادن في الجنوب حتى مقاطعات النوبة ، وفي الغرب حتى جبل طارق. فاضافوا الى الرحلات الادارية الأسفارَ التجارية برًّا وبحرًا وهي اوسع نطاقًا، واكثر خطرًا، ولكنها افسح مجالًا للاختلاقات وذكر العجائب والخوارق. وافضل مثال لما يقاسيه المسافر، وما يراه من الغرائب، تلك الحكاية الجميلة المعروفة « بأسفار السندباد البحري ». فانها ، على ما فيها من المغالاة والاختراعات ، لا تخلو من اوصاف دقيقة لبعض موانئ الشرق الأقصى وجُزُره ، كوصف جزيرة سيلان وطريقة اكتساب الألماس فيها ، وما يتعلّق بوصف الكركدّن والفيل ، وغير ذلك . وهناك ايضاً رحلة التاجر سليمان والنساخذاة ابن وهب الى الهند والصين في منتصف القرن التاسع ، وقد زاد عليها ابو زيد حسن السيرافي سنة ٩١٦ ، واجتهد في ان لا يذكر فيها الا الحقيقة. وينبغي ألّا ننسى ان رحلات ياقوت الرومي (١١٧٠–١٢٢٩) الثلاث الاولى ، كانت في سبيل التجارة ، فمهّدت له سُبُل الاسفار التي لم يحِد عنها حتى قبل وفاته بسنتين ، فجمع المعلومات العديدة ، وترك ذاك المؤلّف الجليل ، « مُعجَم البلدان » ، الذي بوّأه مركزًا ساميًا في عالم الجغرافية.

وهناك عددٌ عديد من الرّحالة دفعهم حبُّ العلم الى زيارة الاقطار المختلفة، ولا سيما ما كان منها سحيقاً غير معروف. فتركوا مواطنهم وساروا شرقاً وغرباً وشمالًا وجنوباً ، تشوّقهم غرائب الشعوب المتباينة، وتدفع بهم عجائب المخلوقات من جماد ونبات وحيوان مما لم يألفوه في بلادهم، ويحثّهم

الاندفاع في المخاطر والمجاهل . وكان من اقدمهم الشاعر ابو دلف بن مهلهل ، الذي سافر من بخارى في اوائل القرن العاشر برفقة احد امراء الهند ، فزار بلاد التبت والهند ، ورجع مارًّا بكشمير ، وافغانستان ، وسجستان . فدوَّن ما رآه في مجلّد أسماه « عجائب البلدان » ، كثيرًا مــا استعان به ياقوت والقزويني . وفي القرن العاشر ايضا نرى رجلًا من اعظم رحّالة العرب ، وأفكه مؤلّفيهم ، هو المسعودي (+٩٥٧) ، بدأ رحلاته في العشرين من سنيه ، فزار بلاد فــارس (٩١٥) والخزر ، والهند ، والتبت ، وجزيرة سيلان . ومنها ابحر ، فقطع بحر الهند ، حتى وصل الى جزيرة كمبالو ، وهي مدغسكر ، على قول بعض العلماء . ثم رجع عن طريق عُمان ، وقصد الاقاليم التي على شاطئ بحر قزوين ، وبلاد الروم ، وسورية ، وفلسطين ، ومصر ، والسودان ، وصقلية . وكانت نتيجة ملاحظاته ، وتفتيشاته ، وابحاثه ، كتابه العجيب اللذيذ الموسوم « بمروج الذهب » . وممّن دفعهم حبّ العلم والرغبة في الاختبارات الشخصية الى الاسفار ابو الريحان محمد البيروني (٩٧٣ — ١٠٤٨) الفيلسوف الرياضي الفلكي الشهير ، فساح في بلاد الهند ، ودرس اخلاق سكّانهــا درسًا علميًا ، وعاد ، فكتب في ذلك كتابه النفيس « تاريخ الهند » . ومنهم ابو عُبيد البكري الاندلسي (١٠٤٠—١٠٩٤) ، ساح في بلاد عديدة من الشرق والغرب ، وألّف الكتاب المعروف « بالمسالك والممالك » .

وخلا ما تقدّم من الاسباب الادارية ، والتجارية ، والعلمية ، كان لاتقياء المسلمين ، من غير العرب ، دافع قويّ الى الرحلات ، الا وهو أداء فريضة الحجّ ، فغنيت الآداب العربية بعدّة اخبار عن البلدان التي يزورها الحجّاج في طريقهم ، وازدهر فيها نوع الرحلات ، بحصر المعنى ،

واشهر اصحابها ابن جُبير الاندلسي ، وابن سعيد المغربي[1] ؛ وهما ، ولا سيما الاول ، من سبّاق ابن بَطّوطة الى الكثير من موصوفاته ، ومن المفيد ايراد كلمة عنهما :

ابن جُبير (١١٤٥ ـ ١٢١٧)

ولد في بلنسية . ورحل الى المشرق مرّتين : سافر في المرّة الاولى من غرناطة سنه ١١٨٢ ، فأقام في البحر من الاندلس الى الاسكندرية ثلاثين يوماً . ثم اتجه نحو الحجاز فحجّ وسار الى العراق ، وسورية ، وفلسطين ثم ركب من عكّا راجعاً الى المغرب ، فمرّ في خليج صِقِلّية . ووصل الى غرناطة في ٢٥ نيسان ١١٨٥ . وبها دوّن ما كان قد جمعه من الاخبار والمذكّرات في رحلته . وبعد مدّة حنّ الى اعادة السفر ، فقام من بلاده قاصدًا المشرق ، فزاره مرّةً ثانيةً . وتوفي بالاسكندرية . هذا ، وانّ ابنَ جُبير ادق من ابن بطوطة في الملاحظات واكمل في بعض الاوصاف ، واصدق في بعض الروايات . ولعلّه امرٌ ناتج من ان ابن بطوطة فقدَ مذكّرات سفره في الطريق ؛ فكان من الصعب عليه ان يتذكّر كلّ شيء . كما ان انشاء ابن جُبير ارفع واكثر تأنّقاً ، غير انّ اكثره مسجّع يظهر فيه التكلّف اغلب الاحيان.

---

١) راجع ، في كلّ ما تقدّم ، المقدّمة الفرنسوية لرحلة ابن بطّوطة ؛ و Carra de Vaux, *Les Penseurs de l'Islam*, II, 1-88 ؛ ويمكن ان يراجع :
G. Ferrand, *Voyage du marchand arabe Sulayman en Inde et en Chine*. Introduction.

P. Casanova, *Notes sur les voyages de Sindbad le marin*. [*Bul. de l'Inst. fr. d'Arch. orientale*, le Caire, XX, 2].

ابن سعيد (١٢٠٨ أو ١٢١٤ — ١٢٧٤ أو ١٢٨٦)

وُلد قرب غرناطة. وسافر الى مكّة مع ابيه سنة ١٢٤٠ يؤدّيان فريضة الحجّ. وبينما هما راجعان، مات ابوه في الإسكندرية (١٢٤٣) فأقام ابن سعيد في القاهرة. ثم رحل الى بغداد، فحلب، فدمشق، فأعاد حجّ مكّة ورجع الى المغرب، فأقام في تونس (١٢٥٤). إلّا ان حُبّ السفر المتملّك فيه اعاده الى الشرق (١٢٦٧) وكانت اخبار هولاكو قد طبّقت الآفاق، فاراد ابن سعيد ان يشاهد الطاغية، فقصد بَلاطه في بلاد ارمينية. ثم رجع فمات في دمشق سنة ١٢٧٤، على قول ابن تغريبردي؛ او في تونس سنة ١٢٨٦، على قول السيوطي والمقّري. وابن سعيد اديب شاعر ترك آثاراً عديدة منها اخبار اسفاره في كتاب «المُغرب».

ولكنّ هذين السائحين، على ما جمعاه من الاخبار المفيدة والملحوظات الدقيقة، لا يعادلان، في سعة البلدان التي قطعاها، ومختلف الشعوب التي درسا اخلاقها، ذاك السائح الشهير، والملاحظ الخبير، الذي جاب اكثر البلدان المعروفة في عصره، وجمع من المعلومات عن عادات الأمم ما قدّم الجغرافية خطوات من بعده، نريد به ابن بَطُّوطة.

ابن بَطُّوطة

١٣٠٤-١٣٧٧

الرجل

نشأته ـ شبابه في طنجة (١٣٠٤ ـ ١٣٢٥)

ابو عبدالله محمد بن عبدالله ، بن محمد ، بن ابرهيم اللَّواتي[1] الطَّنجي ، المعروف بابن بَطُّوطة ، والملقَّب بشمس الدين ؛ وُلد في طَنْجَة في ٢٤ شباط ١٣٠٤ (١٧ رجب ٧٠٣) . وظلَّ فيها الى ان بلغ الثانية والعشرين . ولا نعلم شيئاً عن احواله في هذه المدينة ، إلّا ما يظهر من خلال اقواله ، من انه كان يعيش مع والديه وكثير من الاصحاب براحة وطمأنينة . ولم تكن تمرُّ في باله الهجرة ، الى ان دعاه داعي الحجّ الى مكة ، فلبّاه .

اسفاره (١٣٢٥ ـ ١٣٥٤)

ترك ابن بطوطة طنجة في ١٤ حزيران ١٣٢٥ قاصداً الى مكة . ولكنه لم يكتفِ بهذه السفرة ، بل اطالها حتى جاب اكثر العالم المعمور في ذاك العصر ، كما سنذكر بالتفصيل في كلامنا عن الرّحالة . وكان في سفره ينال كثيراً من الإكرام ، حتى انه عُيّن قاضياً لسلطان دهلي ، محمد شاه ، ثم سفيراً لهذا السلطان لدى ملك الصين . وبعد ذلك رجع الى وطنه ، فدخل

١) اللواتي : نسبة الى لَواتة : من قبائل البربر .

مدينة فاس في ٨ تشرين الاول ١٣٤٩ . وقد سلبه كفّار الهنود في احد اسفاره ، فخسر جميع ما كان قد كتبه من المعلومات.

ولم يطل به المقام حتى قام برحلة ثانية الى اسبانية رجع منها بعد مدّة قصيرة الى فاس.

وكان له ان يكون اول زائر دوّن معلوماته عن مجاهل افريقية المتوسطة ، فاستعدّ لرحلة ثالثة اتمّها في مدة سنتين (١٣٥٢—١٣٥٤) فزار بلاد السودان حتى وصل الى تنبكتو ، وتكدا ، وهكّار ، ثم رجع الى فاس.

بعد اسفاره (١٣٥٤ — ١٣٧٧) — املاء الرحلة

وكان امير مراكش حينذاك السلطان ابا عنان من بني مَرين، فاتصل به ابن بطوطة ، واقام في حاشيته ، يحدّث الناس عمّا رآه من العجائب والغرائب ، وهم يستغربون. فأجزل له السلطان المواهب ، وتقدّم اليه ان يدوّن هذه الاخبار والمشاهد العديدة ، فأملاها على كاتب السلطان ، الاديب محمد بن جُزَيّ الكلبي . فانتهى من كتابتها في شباط ١٣٥٦ وسمّاها : « تُحفة النُظّار في غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار ». وعاش ابن بطّوطة بعد ذلك مكرّماً في بلاد فاس ، الى ان توفي سنة ١٣٧٧ .

أخلاقه وصفاته

كان ابن بطّوطة ، على ما يظهر في رحلته ، رقيق الشعور ، سريع التأثر ، متديّناً تقيّاً ، مكرّماً لرجال الله ، محبّاً لوالديه . وقد حفظ هذه العواطف في كل اسفاره ، فكان يذكر جميع من يشاهدهم من المشايخ

والزاهدين ، والفقراء المتعبّدين ، ويثني عليهم ، ويطلب بركتهم . كذلك يورد كل ما يسمعه من اعمال الخير ومُنشآت الصالحين من اوقاف وملاجئ وغيرها ، سائلاً الله ان يجزي رجال الاحسان خير جزاء . وكم من مرةٍ رأيناه يتبرّك بقبور الاولياء ومزارات الصالحين ، ويبيت في الزوايا . وقد حجّ الى مكّة اربع مرّات ، وهو لا يفتر عن ذكر ما ناله من الخيرات بسبب ذلك .

امّا حبّه لوالِدَيه فيظهر جليًا ، في مقدّمته ، اذ يذكر انه تركهما وهما في قيد الحياة « فتحمّل لبُعدهما وصباً ، ولقي ، كما لقيا ، من الفراق نصباً . »[1] ولم يعد من رِحلته الاولى سنة ١٣٤٩ حتى بلغه ان أُمه توفّيت ، فحزن ، وترك حاشية الملك ابي عنان في فاس الى بلده طَنْجة « قاصدًا زيارة قبر الوالدة . »

ومن سرعة تأثره فرحُه الجزيل لدى اقلّ إنعام يحصل عليه ، وحزنه الصبيانيّ الممزوج بالتباكي ، او الغضب ، اذا لم يكترِثْ له احد . وما رأيك في رجل لا يكاد يضيفه انسان إلّا اصبح اعزّ صديق له ، حتى اذا دخل مدينة فلم يسلّم عليه احدٌ لعدم معرفتهم به ، يجد من ذلك في نفسه ما لا يملك معه سوابق العَبْرَة ، فيشتد بكاؤه الى ان يشعر بحاله بعض الحجّاج فيُقبل عليه بالسلام والإيناس[2] . وان سرعة التأثر هذه ، التي من نتيجتها سرعة التبلّد ، اي موافقة اخلاق الرجل لاخلاق البلد النازل فيه ، تشرح لنا تعوُّد ابن بطوطة مفارقة اهله ، والاقامة في بلاد غريبة عنه ، وهو على ما عرفنا من شدّة التعلّق ورقّة العواطف .

---

١) اطلب المنتخبات ، ص ٩

٢) اطلب المنتخبات ، ص ١٢ — ١٣

الرحّالة

البلاد التي اجتازها

قام ابن بطوطة بثلاث رِحلات واسعة ، جاب فيها اكثر بلاد المعمور المعروفة في زمانه :

الرحلة الاولى : ١٣٢٥ — ١٣٤٩

ترك طَنجة قاصداً مكّة فجاب بلاد مرّاكش ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس الغرب ، ومصر . وسار من القاهرة الى الصعيد حتى عيذاب قاصداً الإبحار من هناك الى الحجاز . ولما تعذّر سفره بحرًا ، بسبب حرب قامت بين البُجاة والمماليك ، رجع الى مصر ، وتابع رحلته عن طريق فلسطين، ولبنان، وسورية ، فالحجاز . فحجّ مرّةً أولى . ورحل الى العراق، والعجم، وبلاد الاناضول . ومنها رجع الى الحجاز ، فحجّ ثانيةً ، وجاور في مكة سنتين (١٣٢٨ و ١٣٢٩) .

وبعد ذلك ترك الحجاز قاصداً اليمن، فقطعه الى افريقية الشرقية . ثم عاد مارًّا بجنوبي جزيرة العرب ، حتى وصل الى خليج فارس زائرًا عُمان، وهُرمز، واللار، والبحرين، والاحساء . ومن هناك عاد الى الحجاز فحجّ ثالثةً .

ثم ترك مكة ، فهبط مصر ثانيةً ، ورجع الى فلسطين ، ولبنان ، وبلاد العلويين ، والاناضول ، وبلاد القريم . ثم رافق الاميرة اليونانية امرأة السلطان محمد ازبك الى القسطنطينية ، فأقام بها مدّة . وعاد الى الهند مارًّا

بخوارزم، وخراسان ، وتركستان، وافغانستان ، والسند. واقام في دهلي سنتين قاضياً لسلطانها محمد شاه، على المذهب المالكي .

وكان ان هذا السلطان اراد ارسال بعثة الى ملك الصين ، فرافقها ابن بطُوطة حتى جُزُر ذيبة المَهل، حيث اقام قاضياً سنة ونصف سنة. وتركها، بعد ذلك ، الى جزيرة سيلان ، والملَبار، وبنغال، وجزائر الهند والصين.

ثم رحل الى بلاد العرب عن طريق سومطرة، فنزل ظفار في شهر محرَّم ٧٤٨ (١٣٤٧) . وبعد ان زار مرةً أخرى بلاد العجم، والعراق ، وسورية ، وفلسطين ، حجَّ رابعةً الى مكة . ورجع نهائياً الى بلاده مارًّا بمصر ، وتونس ، والجزائر ، فوصل الى فاس في ٨ تشرين الثاني ١٣٤٩ .

الرحلة الثانية : ١٣٥٠ — ١٣٥١

ولم يُقِم طويلًا في فاس حتى تركها الى الاندلس فمرَّ بطَنجة ، وسَبتة ، وجبل طارق ، ومالِقة ، وغَرناطة . ثم رجع الى فاس .

الرحلة الثالثة : ١٣٥٢ — ١٣٥٤

زار في هذه الرحلة المهمّة بلاد السودان مبتدئاً بسِجِلْماسة ، فتغازى، وإيوالاتن ، وزاغري، وكارسخو، ومالي ، وتُنبُكتو ، وتكدًا ، وبلاد هكّار، ثم رجع الى مقرّه بفاس.

صدقه وامانته

اقام ابن بطوطة، بعد رحلاته ، في حاشية الملك ابي عنان يُخبِر الناس عمّا رآه من العجائب والغرائب في اخلاق الشعوب وعاداتها ، وهُوَل الخلائق من نبات وحيوان وانسان . فكان الكثيرون يقبلون عليه

مستغربين هذه الامور ، وكان البعض من مدّعي النقد يكذّبونه ، فينهاهم آخرون عن تكذيب أمور لا يعرفون من حقيقتها شيئاً . واحسن تدوير لحالة ابن بطوطة هذه ما رواه ابن خلدون في مقدّمته ، اذ قال :

« ورد بالمغرب ، لعهد السلطان ابي عنان ، من ملوك بني مَرين ، رجلٌ من مشيخة طنجة ، يُعرف بابن بطوطة ، كان رحل من عشرين سنة قبلها الى المشرق ، وتقلّب في بلاد العراق ، واليمن ، والهند . ودخل مدينة دهلي ، حاضرة ملك الهند ، وهو السلطان محمد شاه . وكان له منه مكان ، واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله . ثم انقلب الى المغرب ، واتصل بالسلطان ابي عنان . وكان يحدّث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الارض . واكثر ما كان يحدّث عن دولة صاحب الهند ؛ ويأتي من احواله بما يستغرب به السامعون ، مثل ان ملك الهند ، اذا خرج الى السفر ، احصى اهل مدينته من الرجال والنساء والولدان ، وفرض لهم رزق ستة اشهر تُعطى لهم من عطائه . وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود ، يبرز فيه الناس كافةً الى صحراء البلد ويطوفون به . وينصب امامه في ذلك الحقل منجنيقات على الظهر ، تُرمى بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ايوانه . وامثال هذه الحكايات . فتناجى الناس بتكذيبه .

« ولقيت ايامئذٍ وزير السلطان فارس بن وَرْدار ، الذائع الصيت ، ففاوضته في هذا الشأن ، فقال لي الوزير فارس : « اياك ان تستنكر مثل هذا من احوال الدول ، بما انك لم ترَه . . . » .

وينهي ابن خلدون فصله قائلاً :

« فليرجع الانسان الى أُصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه ، ومميّزاً

بين طبيعة المُمكن والممتنع ، بصريح عقله ، ومستقيم فطرته . فما دخل في نطاق الامكان قبله ، وما خرج عنه رفضه . وليس مرادنا الامكان العقلي المُطلق فان نطاقه اوسع شيء. فلا يُفرض حدًّا بين الواقعات ؛ وانما مرادنا الامكان بحسب المادّة التي للشيء. فانّا اذا نظرنا الى اصل الشيء وجنسه ، وصنفه ومقدار عظمه وقوّته ، أجرينا الحُكم من نسبة ذلك على احواله ، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه.»[1]

ولم يكن ابن خلدون اول من شكَّ في احاديث ابن بطوطة. وهذا ابن جُزَيّ نفسه ، كاتب الرحلة ، لا يخلو من بعض شكوك ، وقد قال: « واوردت جميع ما اورده من الحكايات والاخبار ، ولم اتعرّض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار.»

على انه يمكننا عرض بعض ما يذكره الرحّالة من المبالغات على الاصول التي اوردها ابن خلدون ، فنميّز بين الممكن والممتنع.

وهنالك قياس آخر لمعرفة صحة اقوال رحّالتنا ، وصدق احكامه ، وهو ما اتخذه علماء المستشرقين من مقابلة اقواله باقوال المسافرين من بلادهم ، في عصر يُقارب عصره. ومن اشهر هؤلاء المسافرين الايطالي فريسكوبالدي (Frescobaldi) الذي زار مصر سنة ١٣٨٤ ، اي بعد ابن بطوطة بنحو ٦٠ سنة. وكانت حركة المراكب على النيل قد خفّت بهبوط مصر عن درجة رخائها العالية التي اوصلها اليها السلطان محمد بن قلاون . اما ابن بطوطة فيقول: « ان في النيل من المراكب ستة وثلاثين الفاً للسلطان والرعية تمرّ صاعدةً الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط»[2] ، وهو عدد يكاد

---

١) ابن خلدون : المقدّمة ، طبعة بيروت ، ١٩٠٠ ، ص ١٨١ — ١٨٢

٢) اطلب المنتخبات ، ص ٢٢

يشك في صحته لاول وهلة . ولكننا نرى المسافر الايطالي يقول: «كان في القاهرة عدد عظيم من المراكب حتى انه لو جُمعت جميع المراكب التي شاهدتها في جنوى ، والبندقية ، وأنكونا ، بصرف النظر عن المراكب ذات القنطرتين ، لما عادلت ثلث المراكب التي شاهدتها هنا . . .»[١]

ثم ان ابن بطوطة يقدّر السقّائين على الجمال في مصر باثني عشر الف سقّاء ، والمكارين بثلاثين الفاً . فاذا قابلناه بتقدير فريسكوبالدي المذكور نرى الايطالي اكثر مبالغة ، اذ انه يقدّر عدد الجمال والحيوانات ، التي تنقل الماء في المدينة ، بمائة وثلاثين الفاً .

وقد اخذ بعضهم على ابن بطوطة كثرة سرد الخوارق والمعجزات والكرامات ، والمبالغة فيها[٢] . ونحن اذا ما عرفنا عقليّة المسافر في رحلته ، وشدّة تقواه وعبادته ، واستعداده لرؤية العجائب تحفّ بكل وليّ متعبد ، فهمنا كثرة اخبار الكرامات في كتابه . هذا ، بصرف النظر عن ان كثيراً منها لم يشاهده عياناً بل رُوِي له ، فاستصعب انكاره على أولياء الله ، ورأى من الجرأة الشكّ في صحته ، فرواه على علّاته . من ذلك قصّة جمال الدين الساوي ، الحليق اللحية ، وانباته لحيةً جميلة سوداء ، فلحية أخرى بيضاء ، فرجوعه حليقاً لا شعر له ، مما تراه في مقالة «دمياط»[٣] .

وعلى هذا المحمل ينبغي حمل الكثير من المرويّات عن ملوك الهند والسودان ، وعاداتهم الغريبة ، مثل التي اوردها ابن خلدون . وهي لا

---

١) راجع Defrémery et Sanguinetti, *Voyages d'Ibn Batoutah*, p. X et XI ، وملحق المقدّمة المذكورة ، وفيه تلخيص لرحلة المسافر الايطالي .

٢) ومنهم البارون ديسلان (de Slane) في *Jour. Asiat.*, 1843, p. 184

٣) اطلب المنتخبات ، ص ١٩

يستبعد حدوثها مرّة واحدة ، بعد انتصار عظيم احرزه الملك او في احتفال نادر قام به ، ويكون قد وافق ذلك وجود ابن بطوطة في حاضرته ، فتعجّب منه . فقيل له انه يجري كلما خرج الملك ، افتخارًا وطلبًا للشهرة . فاورده كالاخبار العيانية[1] .

وذلك انه من الصعب اتهام ابن بطوطة بالتلفيق وقصد الغشّ ؛ وهو رجل لا نشعر في كل سطر نقرأه له إلّا بسذاجة وبساطة نافيتين كل احتيال. فاذا نسي اسم رجل او مكان لا يخترع اسماً له ، كما قد يفعل من يكون همّهم الوحيد تسلية القارئ ، بل يقول بكل بساطة انه نسيه ، كما حدث له في « حصن الاكراد » فقال : « ونزلتُ عند قاضيها ولا أُحقّق الان اسمه » ، وفي بلدٍ في السودان بعد تُنبكتو ، فقال : « ثمّ وصلتُ الى بلدٍ أُنسيت اسمه » الى آخر ما هنالك من الامور التي تدلّ على صدقه ، حتى ان دوزي (Dozy) سمّاه : « هذا الرحّالة الامين ! »[2] .

اما ما نراه من الوهم في ترتيب بعض المحالّ ، والخلط بين المواقع كما حصل في بُحيرتي برلُس وتنّيس[3] ، او الخطأ الجغرافي كوضع العاصي في حلب[4] ، فيمكن شرحه بان ابن بطوطة فقد مذكّراته في رحلته الاولى بعد سفره من بخارى . ويؤيد قولنا أنّ هذا التردّد لا يتجاوز القسم الاول من الرحلة ، وكان قد مرّ على ابن بطوطة اكثر من عشرين سنة ، عند املائه اياه .

---

١) راجع : ابن بطوطة في « دائرة المعارف » للبستاني .

٢) *Journal Asiatique*, 1850, t. II, p. 845

٣) المنتخبات ، ص ١٨

٤) المنتخبات ص ٤٠

بقي ان في اخبار ابن بطوطة عن بلاد الهند الصينية والصين اوهاماً واخطاء ونواقص عديدة قد لا تتفق وامانة الوصف . وهو ما لاحظه المستشرق غبريال فرّان (Ferrand) ، الاختصاصي بالشؤون الصينية وما اليها ، فانتقد الرحّالة ، حتى كاد يجزم بان ابن بطوطة لم يصل قطّ في رحلته الى تلك الانحاء[1] .

قيمته

ومهما يكن من أمر ، فلا يظنّ المطالع ان ابن بطوطة يعادل جوّابي الآفاق ، ورُوّاد المجاهل ، من علماء عصرنا . فليس ابن بطوطة عالماً ولا مفكّراً . ان هو الا رحّالة ، متّسع العقل ، راغب في الجديد الغريب ، يرى الاقاليم المتباعدة ، والشعوب المتباينة ، والملوك والامراء المختلفين ، والعلماء والشيوخ المشهورين ، وغير المشهورين ، فيصوّر كل ذلك بجملة مقبولة ، واعجاب ساذج ، وملاحظة فكهة لا تخلو من دقّة نظر . فهو ، من هذا القبيل ، في مقدّمة الرحّالين . ولا غنى عنهم في تحسين علم الجغرافية وصرفه عن جفاف الخرائط والخطوط الى محيط الحياة المتنوّع .

---

١) راجع : *Jour. Asiat.*, 1918, I, p. 474-475

الرحلة

كتابتها وانشاؤها

قال ابن جُزَيّ ان ابن بَطُّوطة أملى عليه الرحلة فنقل معاني «كلام الشيخ بالفاظ موفية المقاصد التي قصدها . . . وربما اورد لفظه على وضعه.» واذًا فلا يمكن القول ان الرحلة بكاملها من انشاء ابن بطُّوطة ، ولا انها بكاملها من انشاء ابن جُزَيّ .

على انه يلوح لنا ان مقدّمة الكتاب ، والخاتمة ، وكلّ مقدّمة لوصف مدينة كبيرة ، من انشاء ابن جُزَيّ لما فيها من كثرة التنميق والسجع الظاهر التكلّف احياناً ، ولا سيما ان ابن جُزَيّ كان يستعين كثيرًا برحلة ابن جبير ، وهي كثيرة السجع وافرة التنميق ، كما ذكرنا .

وفي ما سوى ذلك فان الرحلة سهلة الانشاء ، ساذجة التعبير ، حتى تكاد تجاوز الانشاء المنحطّ احياناً . فتبدو خالية من فنّ التأليف والترتيب ، وهو فنّ صعب في كتابةٍ من هذا النوع ، عرضة للمراجعة والترديد .

نسخها ، طبعاتها ، ترجمتها

اهتمّ الافرنج كثيرًا برحلة ابن بطوطة ، وبحثوا عن نسخها الاصلية فلم يجدوا اولًا الّا مختصرًا اكتشفه السائح بوركهاردت (Burckhardt) فاظهر ، مع العالم سيتزن (Seetzen) ، قيمة هذا المؤلف الكبير . ثم اكتشف المستشرق كوسغارتن (Kosegarten) ، نسخةً ثانية فترجم عنها

الى اللغة اللاتينية ما يختص باسفار ابن بطوطة الى افريقية ، وفارس ، وبلاد التتر ، والجزائر ، ونشرها سنة ١٨١٨ . وترجم المستشرق أپيتز (Apetz) ، الى اللاتينية ايضاً ، قسم الرحلة المختص ببلاد الملبار ، سنة ١٨١٩ .

وفي السنة ١٨٢٩ ترجم قسماً وافرًا من الرحلة الى الانكليزية القسيس صموئيل لي (Rev. Samuel Lee) وطبعه في لندن . ثم قام الاب مورا (P. José de Santo - Antonio Moura) البرتغالي ، فترجم قسماً منها الى اللغة البرتغالية طُبع في لشبونة سنة ١٨٤٠ .

وبعد ذلك قام بعض علماء الفرنسويين فترجموا اقساماً مختلفة من الرحلة طبعوها في باريس ، منهم المستشرق الشهير دي سلان (de Slane) ، طبع ترجمة الرحلة الى بلاد السودان في المجلة الاسيوية سنة ١٨٤٣ . والمستشرق ادوار ديلوريه (Dulaurier) ، طبع ترجمة الرحلة الى جزر الهند في المجلة نفسها سنة ١٨٤٧ . ثم المستشرق دفريمري (Defrémery) ، فطبع ترجمات لاقسام الرحلة الى فارس ، وآسية المتوسطة ، والقريم وآسية الصغرى ، والعراق ، وخراسان سنة ١٨٤٨ ، و ١٨٥٠ ، و ١٨٥١ . ثم طُبع القسم المختص بالمغرب مع ترجمته الالمانية سنة ١٨٦٦ في اوپسالا ، بعناية المستشرق المكويست (Almquist) .

وكان اكثر العلماء المتقدمين يظنُّون ان المختصر المكتشف اولًا هو من عمل ابن جُزَيّ حتى أُكتشفت النسخة الاصلية بخطّ الكاتب ، وأُكتشف نسخ عديدة غيرها ، فقوبلت بعضها ببعض ، وطُبعت كلّها لأول مرّة ، مع ترجمتها الكاملة الى اللغة الفرنسويه وبعض الحواشي ، في باريس سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٩ ، في اربعة مجلّدات ، بعناية المستشرقَين

دفريمري وسانغوينتي (C. Defrémery et le Dr. B. R. Sanguinetti)، ثم طُبعت طبعةً ثالثةً سنة ١٨٩٣ .

ومن ترجمات الرحلة ترجمة المانية نشرها المستشرق مجيك (Mzik) ، في هامبورغ سنة ١٩١١ — ١٩١٢ . وترجمة تركية اسمها « تقويم وقائع» وترجمة هندية بقلم مَدانا كوپالا طُبعت في بنارس سنة ١٩٣٢ .

وللرحلة كاملة ثلاث طبعات عربية في القاهرة مأخوذة كلها عن الطبعة الباريسية، اولاها في مطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٧—١٢٨٨ هـ (١٨٧٠—١٨٧١). والثانية في المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ(١٩٠٤). والثالثة في المطبعة الازهرية سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨). وكان قد طُبع مختصر الرحلة في مصر سنة ١٢٧٨ هـ (١٨٦١) طبعاً حجريًا بتصحيح الشيخ علي المخللاتي.

وقد استندنا، في منتخباتنا هذه، الى طبعة باريس الكاملة، والى الطبعات المصرية[1] .

---

١) قام، بعد ظهور طبعتنا الاولى، مفتّشان بوزارة المعارف المصرية، هما احمد العوامري بك ومحمد احمد جاد المولى بك، «فهذَّبا الرحلة وضبطا غريبها واعلامها» ونشراها في المطبعة الاميرية، القاهرة، سنة ١٩٣٣، في جزءين قدّما عليها مقدّمة اغارا فيها على مقدّمتنا هذه، فاختصرا اكثرها، ونقلا بعضها بالحرف الواحد، محتفظين، من جملة ما احتفظا به من الشواهد على «امانتهما» العلمية، بالتاريخ المسيحي، — وهي ظاهرة غريبة في منشورات «وزارة المعارف المصرية» المؤرِّخة عادةً بالتاريخ الهجري، — وببعض الاغلاط المطبعية الظاهرة في طبعتنا الاولى . وقد اضافا الى ذلك جهلًا بارزًا باشارة يستعملها الكتّاب دلالةً على وفاة المترجم له، وهي هذه † . فظنها المفتشان صليباً يجب تنزيه كتابهما عنه، فاهملاها في ما نقلاه من مقدّمتنا، دون ان يفسّراها او يبدلا بها شيئاً، فانعكس عليها المعنى الاجمالي، وعوض إن تكون السنوات ٩١٢، و ٩٢٢، و ٩٣٤، و ٩٨١ تاريخًا لوفيات ابن خرداذبه، وقدامة، والبلخي، وابن حوقل، اصبحت تاريخًا لرحلاتهم،

اقسامها

قَسم ابن جُزَيّ الكتاب قسمين، ينتهي الاول منها بوصول ابن بطوطة الى نهر السند « بنج آب » في آخر ذي الحجة سنة ٧٣٤ (١٣٣٤).

فاتُّبع هذا التقسيم في الطبعات المصرية، فأتت كل منها في مجلَّدين.

وقد رأينا، في منتخباتنا، ان نشير الى آخر القسم الاول عند الوصول اليه، وان نقسم الرحلة ثلاثة اقسام موافقة للرحلات الثلاث المذكورة، قبل هذا الكلام، في فصل « الرحَّالة ».

وكان ابن جُزَيّ قد كتب عناوين لبعض الامور المهمّة؛ ولكنه لم يعمّ ذلك، ولم يكتب عناوين لذكر المدن، وهي من الاهمية بمكان. فرأينا ان نقوم بهذا الامر، كما اننا رأينا ان نكتب عناوين أخرى لأسماء البلدان المختلفة التي يزورها الرحَّالة، مع الاحتفاظ بعناوين ابن جُزَيّ الاصلية.

فتأمَّل. (راجع الصفحة م من مقدّمتها والصفحة ا من مقدّمتنا).

ولم تنجُ حواشي طبعتنا من غارة المفتّشين العفيفين، فنقلا كثيرًا منها بالحرف الواحد. ولعلّ من افكه ما يُذكر في هذا الباب انهما وصلا الى ما علّقناه، في الصفحة ١٣ من طبعتنا، على اسم السلطان ابن ابي حفص، سلطان تونس، ذاكرين ان « اشهر امراء بني حفص المستنصر (١٢٤٩—١٢٧٧)، وهو الذي قاوم القديس لويس ملك فرنسة »، فنقلا الحاشية كلها، محتفظين بالتاريخ المسيحي؛ ولكنهما، لفطنةٍ سامية، حكما بان يُنزّه الكتاب عن اسم « القديس »، كما نزّهاه سابقًا عن اشارة الصليب، فحذفا « القديس » (في الصفحة ٩ من الجزء الاول) وكتبا: « وهو الذي قاوم لويس ملك فرنسة »، واذا بالجملة آية في الغموض التاريخي، يحق لكل من يقرأها ان يصيح: وأيّ « لويس! » وفي فرنسة ثمانية عشر ملكًا باسم لويس!...

وكي لا يلتبس ما نذكر من العناوين بعناوين الكاتب، رأينا ان نطبع هذه بجسم ٢٢ ، ونفرق بين عناويننا ، فنطبع المهمّ منها بالحرف الفارسي من جسم ٢٨ ، والاقلّ أهميّة بجسم ١٤ .

قيمتها

وهنا نرى من النافل التبسُّط في وصف فائدة هذه الرحلة الجمّة، وما انتجته لعالم الجغرافية من المعلومات القيّمة ، وما يكون لقراءتها من لذّة وفائدة للمتأدّبين ، فنكتفي بشهادة العالم سيتزن الرحّالة المشهور ؛ قال ما معناه :

« اي مسافر اوروبي في هذا العصر يمكنه الافتخار بانه خصّص قدر هذا الزمن ، الذي يبلغ نصف حياة الانسان ، في سبيل ارتيـاد مثل هذا العدد من البلدان السحيقة وذلك بشجاعة لا يزعزعها شيء ، وبتحمّل المشقّات العديدة ؟ بل أيّة أمّة أوروبية كان يمكنها ، لخمسة قرون خلت ، إيجاد مسافر يجوب المناطق الاجنبية ، بمثل هذا الاستقلال في الحكم ، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة ، وبمثل هذه الدقّة في كتابة الملاحظات ، التي اتصف بها هذا الشيخ المراكشي المشهور ، في المجلّدين من كتابه ؟ ان معلوماته عن كثير من المقاطعات الافريقية المجهولة ، وعن نهر النيجر ، وعن بلاد الزنج (زنجبار) الخ . . . ، لا تقلّ فائدة من معلومات لاون الافريقي . اما جغرافية بلاد العرب ، وبُخارى ، وكابُل ، وقندهار ، فانها تستفيد كثيرًا من كتابه ؛ حتى اخباره عن الهند ، وسيلان ، وسومطرة ، والصين ، فانه من الواجب على انكليز الهند ان يقرأوها باهتمام خاصّ . »[١]

---

(١) اوردها Defrémery et Sanguineti, *Voyages d'Ibn Batoutah*, p. VII

ولما كان ابن بطوطة اول رحّالة الى قلب افريقية وصلتنا معلوماته، كان لهذه المعلومات قيمة جزيلة، لان كاتبها جاب افريقية من الشمال الى الجنوب،ومن الشرق الى الشمال الغربي، فكان ما كتبه لا يقلّ،في اكثر نقاطه، عن افادات رحّالي عصرنا العلماء.

مآخذ

ابن جُزَيّ: مقدّمة الرحلة.

البستاني: ابن بطوطة، في دائرة المعارف.

C. Defrémery et le Dr B. R. Sanguinetti, *Voyages d'Ibn Batoutah*, 4 volumes, Paris. 1853-1859.

Brockelmann, *Ibn Baṭṭūṭa*, dans *Encyclopédie de l'Islam*.

Bon Carra de Vaux, *Les Grands Voyageurs*, dans *les Penseurs de l'Islam*. t. II, Paris, 1921.

M. G. de Slane, *Voyage dans le Soudan, par Ibn-Batoutah*, dans, *Jour. Asiat.*, 1843, I, 181.

» » *Lettre à M. Reinaud*, dans *Jour. Asiat.* 1843, I, 241.

Blanche Trapier, *Les Voyageurs arabes au Moyen-Age*. Paris, 1937.

مقدّمة ابن جُزَيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه، العالم الثقة النبيه، الناسك الابرّ، وفدُ الله المعتمر، شرفُ الدين، المعتمد في سياحته على ربّ العالمين، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللّواتي ثم الطَّنجي، المعروف بابن بطُّوطة، رحمه الله، ورضي عنه بمنّه وكرمه، آمين! آمين:

الحمد لله الذي ذلّل الارض لعباده «ليسلكوا منها سبلًا فِجاجاً»[1] وجعل منها وإليها تاراتهم الثلاث: نباتاً، وإعادةً، وإخراجاً[2]. دحاها بقدرته فكانت مهادًا للعباد، وارساها بالأعلام الراسيات والاطواد، ورفع فوقها سَمْك السماء بغير عماد؛ واطلع الكواكب هداية في ظلمات البرّ والبحر، وجعل القمر نورًا، والشمس سراجاً. ثم انزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد الممات، وانبت فيها من كل الثمرات، وفطر اقطارها بصنوف النبات؛ وفجر البحرين: عذباً فُراتاً، ومِلحاً أجاجاً[3]. واكمل

---

١) القرآن ٧١ [نوح] ١٩

٢) «منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارةً أُخرى» القرآن ٢٠ [طه] ٥٧؛ و ٧١ [نوح] ١٦–١٧

٣) «وهو الذي مَرَج البحرين: هذا عذب فرات، وهذا ملح أُجاج» القرآن ٢٥ [الفرقان] ٥٥

على خلقه الإنعام، بتذليل مطايا الأنعام، وتسخير «المُنشآت كالأعلام»[1]، ليمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر أثباجاً.

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد، الذي اوضح للخلق منهاجاً، وطلع نور هدايته وهّاجاً. بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين، واختاره خاتماً للنبيّين، وامكن صوارمه من رقاب المشركين، حتى دخل الناسُ في دين الله افواجاً. وايّده بالمعجزات الباهرات، وانطق بتصديقه الجمادات، واحيى بدعوته الرمم الباليات، وفجر من بين انامله «ماءً ثجّاجاً»[2].

ورضي الله تعالى عن المتشرّفين بالانتماء اليه اصحاباً، وآلاً، وازواجاً، المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجاً. فهم الذين آزروه على جهاد الاعداء، وظاهروه على اظهار الملّة البيضاء، وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة، والنصرة، والإيواء؛ واقتحموا دونه نار البأس حاميةً، وخاضوا بحر الموت عجّاجاً.

الدعاء للخليفة ومدحه

ونستوهب الله تعالى لمولانا الخليفة امير المؤمنين، المتوكِّل على الله رب العالمين، المجاهد في سبيل الله، المؤيَّد بنصر الله، ابي عنان فارس[3]، ابن موالينا الأئمة المهتدين، الخلفاء الراشدين، نصراً يوسع الدنيا واهلها ابتهاجاً؛ وسعداً يكون لزمانة الزمان عِلاجاً؛ كما وهبه الله بأساً وجوداً،

---

١) اي المراكب – القرآن ٥٥ [الرحمن] ٢٤

٢) القرآن ٧٨ [النبأ] ١٤

٣) هو احد امراء بني مَرين الذين حكموا مراكش، بعد ان طردوا أمراء الموحّدين، من ١٢٦٩ الى ١٥٥١

لم يدع طاغياً ولا محتاجاً ، وجعل بسيفه ، وسيبه ، لكل ضيقة انفراجا .

وبعد، فقد قضت العقول، وحكم المعقول والمنقول، بأن هذه الخلافة العليّة ، المجاهدة ، المتوكلية ، الفارسيّة ، هي ظلّ الله الممدود على الأنام ، وحبله الذي به الاعتصام ، وفي سلك طاعته يجب الانتظام . فهي التي ابرأت الدين عند اعتلاله، واغمدت سيف العدوان عند انسلاله ، واصلحت الايام بعد فسادها ، ونفّقت سوق العلم بعد كسادها ، واوضحت طُرُق البرّ عند انهاجها ، وسكّنت اقطار الارض عند ارتجاجها ، واحيت سُنن المكارم بعد مماتها ، واماتت رسوم المظالم بعد حياتها ، وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ، ونقضت احكام البغي عند استقلالها ، وشادت مباني الحق على عمد التقوى ، واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الاقوى . فلها العزّ الذي عقد تاجه على مفرق الجوزاء ، والمجد الذي جرّ اذياله على مجرّة السماء ، والسعد الذي ردّ على الزمان غضّ شبابه ، والعدل الذي مدّ على اهل الايمان مديد اطنابه ، والجود الذي قطرُ سحابه اللجينُ والنُّضار ، والبأس الذي فيضُ غمامه الدم الموّار[1] ؛ والنصر الذي نَفْضُ كتائبه الاجل ، والتأييد الذي بَعْضُ غنائمه الدول ، والبطش الذي سبق سيفه العذل، والاناة التي لا يملّ عندها الامل، والحزم الذي يسدّ على الاعداء وجوه المسارب ، والعزم الذي يفلّ جموعها قبل قراع الكتائب ، والحِلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب ، والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب، والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات ، والعمل المقيّد بالاخلاص ، والاعمال بالنيات !

---

١) الموّار : مبالغة من مار الدم :جرى فتردّد عرضاً واضطرب في جريه .

ولمـا كانت حضرته العليّة مطمح الآمال ، ومسرح همم الرجال ، ومحطّ رحال الفضائل ، ومثابة أمن الخائف ومنية السائل ، توخى الزمان خدمتها ببدائع تُحفِه ، وروائع طُرَفِه ، فانثال[1] عليها العلماء انثيالَ جودها على الصَفاة ، وتسابق اليها الادباء تسابق عزماتهـا الى العداة . وحجّ العارفون حرَمها الشريف، وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ، ولجأ الخائفون الى الامتناع بعز جنابها ، واستجارت الملوك بخدمة ابوابها . فهي القُطب الذي عليه مَدارُ العالَم ، وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالِم ، وعن مآثرها الفائقة يُسند صِحاحَ الآثار كلُّ مسلم، وباكمال محاسنها الرائقة يُفصح كل معلم .

ذكر ابن بطّوطة

وكان ممن وفد على بابها السامي ، وتعدّى اوشال[2] البلاد الى بحرها الطامي، الشيخ الفقيه ، السائح الثقة الصدوق ، جوّاب الارض، ومخترق الاقاليم بالطول والعرض ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللّواتي الطَنجي، المعروف بابن بطّوطة ، المعروف في البلاد الشرقية بشمس الدين. وهو الذي طاف الارض معتبرًا ، وطوى الامصار مختبرًا ، وباحث فِرَق الأُمم، وسبر سِيَرَ العرب والعجم. ثم القى عصا التّسيار بهذه الحضرة العليا ، لما علم ان لها مزيّة الفضل دون شرط ولا ثُنيا[3]، وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب، وآثرها على الاقطار إيثار التبر على التُرب ،

---

١) انثال : الناس على فلان : انصبّوا .
٢) اوشال : ج. وشل : الماء القليل .
٣) ولا ثُنيا : اي دون إستثناء .

اختيارًا بعد طول اختبار البلاد والخلق ، ورغبةً في اللحاق بالطائفة التي لا تزال على الحق . فغمره من احسانه الجزيل ، وامتنانه الحفيّ الحفيل ، ما انساه الماضي بالحال ، واغناه عن طول الترحال ، وحقَّر عنده ما كان من سواه يستعظمه ، وحقَّق لديه ما كان من فضله يتوهّمه ، فنسي ما كان أَلِفه من جولان البلاد ، وظفر بالمرعى الخصب بعد طول الارتياد .

املاء الرحلة

ونفذت الاشارة الكريمة بان يُملي ما شهده في رحلته من الامصار ، وما علق بحفظه من نوادر الاخبار ، ويذكر مَن لقيه من ملوك الاقطار ، وعلمائها الاخيار ، واوليائها الابرار . فاملى من ذلك ما فيه نزهة الخاطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، من كل غريبة افادَ باجتلائها ، وعجيبة اطرف بانتحائها .

مهمّة ابن جُزَيّ — طريقته في الكتابة

وصدر الامر العالي لعبد مقامهم الكريم ، المنقطع الى بابهم ، المتشرّف بخدمة جنابهم ، محمد بن محمد بن جُزَيّ الكلبي ، اعانه الله على خدمتهم ، واوزعه[1] شكر نعمتهم ، بان يضمّ اطراف ما املاه الشيخ ابو عبدالله من ذلك ، في تصنيفٍ يكون على فوائده مشتملًا ، ولنيل مقاصده مكملًا ، متوخياً تنقيحَ الكلام وتهذيبه ، معتمدًا ايضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطُرف ، ويعظم الانتفاع بدرّها عند تجريده عن الصدف . فامتثل ما أُمر به مبادرًا ، وشرع في منهله ليكون ، بمعونة الله ، عن توفية الغرض منه صادرًا . ونقلتُ معاني كلام الشيخ ابي عبدالله ، بالفاظٍ موفية للمقاصد

١) اوزعه الله شكرَه : الهمه .

التي قصدها، موضحة للمناحي التي اعتمدها، وربما اوردت لفظه على وضعه، فلم اخلَّ باصله ولا فرعه . واوردت جميع مـــا اورده من الحكايات والاخبار ، ولم اتعرّض لبحثٍ عن حقيقة ذلك ولا اختبار . على انه سلك في اسناد صحاحها اقوم المسالك ، وخرج عن عهدة سائرها بما يُشعر من الالفاظ بذلك . وقيّدت المشكِل من اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون انفع في التصحيح والضبط . وشرحتُ ما امكنني شرحه من الاسماء العجمية ، لانها تلتبس بعُجمتها على الناس ، ويخطئ في فكّ معمّاها معهود القياس .

وانا ارجو ان يقع ما قصدته من المقام العليّ ، أيّده الله ، بمحلّ القبول ، وابلغ ، من الاغضاء عن تقصيره ، المأمول ؛ فعوائدهم في السماح جميلة ، ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة ، والله تعالى يُديم لهم عادة النصر والتمكين ، ويعرفهم عوارف التأييد والفتح المبين .

الرحلة الاولى

١٤ حزيران ١٣٢٥ – ٨ تشرين الثاني ١٣٤٩

مراكش ـ الجزائر ـ تونس ـ طرابلس الغرب ـ مصر ـ فلسطين ـ لبنان ـ سورية ـ الحجاز ـ العراق ـ فارس ـ دياربكر ـ الحجاز ـ اليمن ـ افريقية الشرقية ـ اليمن ـ عمان ـ هرمز ـ اللار ـ البحرين ـ الاحساء ـ الحجاز ـ مصر ـ فلسطين ـ لبنان ـ بلاد العلويين ـ الاناضول ـ القريم ـ روسية الجنوبية ـ القسطنطينية ـ بلاد التتر ـ خوارزم ـ خراسان ـ تركستان ـ افغانستان ـ السند ـ الهند ـ جزائر ذيبة المهل ـ جزيرة سيلان ـ الملبار ـ جزائر ذيبة المهل ـ بنغال ـ جزائر الهند ـ الصين ـ الهند ـ مسقط ـ فارس ـ العراق ـ سورية ـ فلسطين ـ مصر ـ الحجاز ـ مصر ـ تونس ـ الجزائر ـ مراكش ٠

الفصل الاول

بلاد المغرب

مراكش – الجزائر – تونس – طرابلس الغرب

قال الشيخ ابو عبدالله :

كان خروجي من طنجة ، مسقط رأسي ، في اليوم الخميس الثاني من شهرالله رجب الفرد ، عام خمسة وعشرين وسبعمائة[1] ، معتمداً حجّ بيت الله الحرام ، وزيارة قبر الرسول عليه افضل الصلاة والسلام ؛ منفرداً عن رفيق آنس بصحبته ، وركب اكون في جملته ، لباعث من النفس شديد العزائم ، وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم[2] ؛ فجزمت امري على هجر الإناث من الاحباب والذكور ، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور . وكان والديّ بقيد الحياة فتحمّلت لبعدهما وَصباً ، ولقيتُ كما لقيا من الفراق نصباً ؛ وسنّي يومئذٍ ثنتان وعشرون سنة[1] . وكان ارتحالي في ايام امير المؤمنين ، وناصر الدين ، المجاهد في سبيل ربّ العالمين ، الذي رويت اخبار جوده موصولة الاسناد بالاسناد ، وشهرت آثار كرمه شهرة

---

١) ١٤ حزيران ١٣٢٥

٢) الحيازم : ج. الحيزوم : وسط الصدر .

٣) قال ابن جُزَيّ : « اخبرني ابو عبدالله ، بمدينة غرناطة ، ان مولده بطنجة في اليوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد ، سنة ثلاث وسبعمائة » (٢٤ شباط ١٣٠٤)

واضحة الاشهاد ، وتحلّت الايام بحلى فضله ، ورتع الانام في ظلّ رفقه وعدله ، الإمام المقدّس ابو سعيد ، ابن مولانا امير المؤمنين وناصر الدين، الذي فلّ حدّ الشرك صدق عزائمه ، واطفأت نارَ الكفر جداولُ صوارمه، وفتكت بعبّاد الصليب كتائبه ، وكرمت في اخلاص الجهاد مذاهبه ، الإمام المقدّس ابو يوسف بن عبد الحق، جدّد الله عليهم رضوانه ، وسقى ضرائحهم المقدّسة من صوب الحيا طلّه وتهتانه ، وجزاهم افضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين ، وابقى الملك في عقبهم الى يوم الدين.

تلمسان : التقاؤه بفقيهين

فوصلتُ مدينة تِلِمْسان ، وسلطانها يومئذٍ ابو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يَغْمُراسن بن زيان ، ووافقتُ بها رسولَي ملك افريقية[1] السلطان ابي يحيى ، رحمه الله ، وهما قاضي الأنكحة بمدينة تونس ، ابو عبدالله محمد بن ابي بكر بن علي بن ابراهيم النفزاوي ، والشيخ الصالح ابو عبدالله بن محمد بن الحسين بن عبدالله القرشي الزُبيدي (بضم الزاي نسبة الى قرية بساحل المهدية) وهو احد الفضلاء ، ووفاته عام اربعين[2] . وفي يوم وصولي الى تِلِمْسان خرج عنها الرسولان المذكوران، فاشار عليّ بعض الاخوان بمرافقتهما . فاستخرت الله تعالى في ذلك ، واقمت بتِلِمْسان ثلاثاً في قضاء مآربي ، وخرجت اجدّ السير في آثارهما .

مليانة : موت القاضي

فوصلتُ مدينة مِلْيانة وادركتهما بها ، وذلك في إبّان القيظ . فلحق

---

١) افريقية : يعني تونس .
٢) اي سبعمائة واربعين = ٩ تموز ١٣٣٩ – ٢٧ حزيران ١٣٤٠

الفقيهين مرضٌ اقمنا بسببه عشراً . ثم ارتحلنا وقد اشتدَّ المرض بالقاضي منهما، فأقمنا ببعض المياه، على مسافة اربعة اميال من مليانة ثلاثاً . وقضى القاضي نحبَه ضُحى اليوم الرابع . فعاد ابنه ابو الطيب، ورفيقه ابو عبدالله الزُبيدي، الى مليانة فقبروه بها . وتركتهم هناك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس، منهم الحاج مسعود بن المنتصر ، والحاج العدولي ، ومحمد بن الحجر .

الجزائر – بجَاية : اول ظلم – مرض ابن بطوطة

فوصلنا مدينة الجزائر ، واقمنا بخارجها اياماً الى ان قدم الشيخ ابو عبد الله ، وابن القاضي ، فتوجّهنا جميعاً على متيجة الى جبل الزان . ثم وصلنا الى مدينة بجَاية ، فنزل الشيخ ابو عبدالله بدار قاضيها ، ابي عبدالله الزواوي؛ ونزل ابو الطيب، ابن القاضي ، بدار الفقيه ابي عبدالله المفسّر . وكان امير بجاية ، اذ ذاك ، ابا عبدالله محمد بن سيد الناس الحاجب . وكان قد توفي من تجار تونس، الذين صحبتهم من مِليانة ، محمد بن الحجر الذي تقدّم ذكره، وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب، واوصى بها لرجل من اهل الجزائر يُعرف بابن حديدة ، ليوصلها الى ورثته بتونس . فانتهى خبره لابن سيد الناس المذكور ، فانتزعها من يده . وهذا اول ما شاهدته من ظلم عمّال الموحدين[1] وولاتهم .

ولما وصلنا الى بجَاية ، كما ذكرت ، اصابتني الحمّى ، فاشار عليَّ ابو عبدالله الزُبيدي بالاقامة فيها ، حتى يتمكّن البُرء مني . فأبيت ، وقلت : « ان قضى الله ، عزَّ وجلَّ ، بالموت ، فتكون وفاتي بالطريق ، وانا قاصد

---

١) الموحّدون : دولة من أمراء البربر حكمت كل إفريقية الشمالية ونصف اسبانية تقريباً (١١٣٠–١٢٦٩) ، وكان بينهم وبين المرينيين ، اصحاب مراكش ، مناوشات ؛ حتى فاز عليهم المرينيون وطردوهم سنة ١٢٦٩

ارض الحجاز !» فقال لي : «اما ان عزمت ، فبعْ دابتك وثقل المتاع ، وأنا أعيرك دابة وخباء ، وتصحبنا خفيفاً . فاننا نجد السير خوف غارة العرب في الطريق.» ففعلت هذا ، واعارني ما وعد به ، جزاه الله خيرًا ! وكان ذلك اول ما ظهر لي من الألطاف الالهية في تلك الوجهة الحجازية.

قُسَنْطينة : اول هِبَة

وسرنا الى ان وصلنا الى مدينة قُسَنْطِينة ، فنزلنا خارجها . واصابنا مطر جود اضطرّنا الى الخروج عن الاخبية ليلًا الى دورٍ هناك . فلما كان من الغد ، تلقّانا حاكم المدينة ، وهو من الشرفاء الفضلاء يسمّى بابي الحسن ، فنظر الى ثيابي ، وقد لوّثها المطر ، فامر بغسلها في داره . وكان الإحرام[1] منها خلقاً ، فبعث مكانه إحراماً بعلبكيًا ، وصرّ في احد طرفيه دينارين من الذهب . فكان ذلك اول ما فتح به عليّ في وجهتي .

بونة

ورحلنا الى ان وصلنا مدينة بونة ، ونزلنا بداخلها ، واقمنا بها اياماً . ثم تركنا بها مَن كان في صحبتنا من التجار لاجل الخوف في الطريق ، وتجرّدنا للسير وواصلنا الجدّ . واصابتني حُمّى ، فكنت اشدُّ نفسي بعمامة فوق السرج ، خوفَ السقوط بسبب الضعف ، ولا يمكنني النزول من الخوف .

تونس

الى ان وصلنا مدينة تونس ، فبرز اهلها للقاء الشيخ ابي عبدالله الزُّبَيدي ، ولقاء ابي الطيب ابن القاضي ابي عبدالله النفزاوي ، فاقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال . ولم يسلّم عليّ احد لعدم معرفتي بهم ،

---

١) الإحرام : نوع من لباس الرأس كان يستعمله اهل الاندلس والمغرب .

فوجدت من ذلك ، في النفس ، ما لم أملك معه سوابق العَبرة ، واشتدّ بكائي فشعر بحالي بعض الحجّاج ، فاقبل عليّ بالسلام والايناس ، وما زال يؤنسني بحديثه ، حتى دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيّين.

ثم يذكر ابن بطّوطة سلطان تونس وهو ابو يحيى بن ابي زكريا . . . ابن ابي حفص (١ ، ويمدحه ويتكلم عن بعض علمائها . ثم يتكلّم عن مروره ببلد سوسة ، وصفاقس ، وقابس ، وطرابلس ، وزواجه فيها ، ثم يشير الى تركه زوجته واتخاذه اخرى .

طلاقه ثم زواجه الثاني

ثم خرجت من اطرابلس، اواخر شهر المحرَّم من عام ستة وعشرين[2] ، ومعي اهلي، وفي صحبتي جماعة من المصامِدة. وقد رفعت العلَم وتقدمت عليهم واقام الركب في اطرابلس خوفاً من البرد والمطر . وتجاوزنا مِسْلاتة ، و مسْراتة ، وقصور سُرت . وهنالك ارادت طوائف العرب الإيقاع بنا ؛ ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ما راموه من أذيّتنا . ثم توسَّطنا الغابة ، وتجاوزناها الى قصر برصيص العابد ، الى قُبّة سلّام ، وادركنا هنالك الركب الذين تخلّفوا باطرابلس .

ووقع بيني وبين صهري[3] مشاجرة أوجبت فراق بنته . وتزوّجت بنتاً لبعض طلبة فاس، وبنيت بها بقصر الزعافية ، واولمت وليمة حبستُ لها الرّكبَ يوماً ، واطعمتُهم .

---

١) هو من الامراء بني حفص – والدولة الحَفصيّة أسّسها سنة ١٢٢٨ ابو حفص قائد احد امراء الموحّدين؛ وكان افرادها ، في اول عهدهم ، عمّال تونس للموحّدين ، ثم صاروا سلاطينها بعد سقوط هؤلاء (١٢٦٩) . واشهر امراء بني حفص المستنصر (١٢٤٩–١٢٧٧)، وهو الذي قاوم القديس لويس،ملك فرنسة.

٢) اوائل كانون الثاني ١٣٢٦

٣) اراد حماه ، اي والد امرأته .

الفصل الثاني

القطر المصري

الاسكندرية

ثم وصلنا في اول جماد الاول[1] ، الى مدينة الاسكندرية ، حرسها الله ! وهي الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشان ، الاصيلة البنيان . بها ما شئتَ من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها . فهي الفريدة تجلّى سناها ، والخريدة تُجلى في حُلاها ؛ الزاهية بجمالها المُغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسّطها بين المشرق والمغرب . فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فإليها انتهاؤها . وقد وصفها الناس فاطنبوا ، وصنّفوا في عجائبها فاغربوا ، وحسب المُشرف الى ذلك ، ما سطّره ابو عبيد في « كتاب المسالك »[2] .

ذكر ابوابها ومرساها

ولمدينة الاسكندرية اربعة ابواب : باب السدرة ، واليه يشرع طريق

---

١) الموافق ٥ نيسان ١٣٢٦

٢) هو كتاب « المسالك والممالك » لابي عبيد البكري الاندلسي (١٠٤٠– ١٠٩٤) ، الوارد ذكره في مقدّمتنا .

المغرب ، وباب رشيد ، وباب البحر ، والباب الاخضر ، وليس يفتح الّا يوم الجمعة ، فيخرج الناس منه الى زيارة القبور . ولها المرسى العظيم الشان، ولم أرَ في مراسي الدنيا مثله ، الّا ما كان من مرسى كولم ، وقاليقوط ، ببلاد الهند ؛ ومرسى الكفّار بسوداق ببلاد الاتراك[1]؛ ومرسى الزيتون[2]، ببلاد الصين . وسيقع ذكرها .

ذكر المنار

قصدت المنار في هذه الوجهة ، فرأيت احد جوانبه متهدّماً ، وصفته انه بناء مربّع ، ذاهب في الهواء ، وبابه مرتفع على الارض، وإزاء بابه بناء بقدر ارتفاعه ، وُضعت بينهما الواح خشب يعبر عليها الى بابه ؛ فاذا أزيلت ، لم يكن له سبيل . وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار ، وداخل المنار بيوت كثيرة . وعرض الممرّ بداخله تسعة اشبار ، وعرض الحائط عشرة اشبار ؛ وعرض المنار ، من كل جهة من جهاته الاربع ، مائة واربعون شبراً . وهو على تلّ مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد ، في برّ مستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات ، الى ان يتّصل البحر بسور البلد ، فلا يمكن التوصل الى المنار في البرّ ، الّا من المدينة ، وفي هذا البرّ المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية .

وقصدت المنار عند عودي الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة[3] ،

---

١) الكفّار : اي الجنويّون . بلاد الاتراك : بلاد القُرِم .
٢) الزيتون : اسمها اليوم تشيّون – تشيو – فو .
٣) ٧٥٠ = بدؤها ٢٢ اذار ١٣٤٩

فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ، ولا الصعود الى بابه . وكان الملك الناصر ، رحمه الله ، قد شرع في بناء منار مثله بازائه ، فعاقه الموت عن اتمامه .

ذكر عمود السواري

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها ، المسمّى عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل . وقد امتاز عن شجراتها سموًا وارتفاعاً ، وهو قطعة واحدة ، محكمة النحت ، قد أُقيم على قواعد حجارة مربّعة ، امثال الدكاكين[1] العظيمة . ولا تُعرف كيفية وضعه هنالك ، ولا يُتحقّق من وضعه[2] .

امير الاسكندرية

وكان امير الاسكندرية ، في عهد وصولي اليها ، يسمّى بصلاح

---

١) الدكاكين : ج. الدكّان : بناءٌ يُسطّح اعلاه كالمصطبة ويجلس عليه . اما الدكّان ، بمعنى الحانوت ، فمعرّب عن الفارسية .

٢) قال ابن جُزَيّ : « اخبرني بعض اشياخي الرحّالين ان احد الرماة بالاسكندرية صعد الى اعلى ذلك العمود ، ومعه قوسه وكنانته . واستقرّ هناك . وشاع خبره ، فاجتمع الجمّ الغفير لمشاهدته وطال العجب منه ، وخفي عن الناس وجه احتياله . واظنّه كان خائفاً ، او طالب حاجة ، فانتج فعله الوصول الى قصده ، لغرابة ما اتى به . وكيفية احتياله في صعوده انه رمى بنُشّابة قد عقد بفُوقها خيطاً طويلاً ، وعقد بطرف الخيط حبلاً وثيقاً . فتجاوزت النشّابة اعلى العمود ، معترضةً عليه ، ووقعت من الجهة الموازية للرامي . فسار الخيط معترضاً على اعلى العمود . فجذبه حتى توسّط الحبل على العمود ، مكان الخيط . فاوثقه من احدى الجهتين في الارض وتعلّق به صاعدًا من الجهة الاخرى ، واستقرّ باعلاه ، وجذب الحبل ، واستصحب من احتمله . فلم يهتدِ الناس لحيلته وعجبوا من شأنه . »

الدين . وكان فيها ايضاً ، في ذلك العهد ، سلطان افريقية[1] المخلوع ، وهو زكرياء ابو يحيي بن احمد بن ابي حفص[2] ، المعروف باللحياني . وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية ، واجرى له مائة درهم في كل يوم. وكان معه اولاده : عبد الواحد ، ومصري ، واسكندري ؛ وحاجبه ابو زكرياء بن يعقوب؛ووزيره ابو عبدالله بن ياسين. وبالاسكندرية توفي اللحياني المذكور،وولده الاسكندري. وبقي المصري بها الى اليوم. وتحوّل عبد الواحد الى الاندلس ، والمغرب ، وافريقية ، وتوفي هنالك بجزيرة جربة .

ذكر بعض العلماء الثلاثة

وهنا ذكر الرحالة عدداً من علماء الاسكندرية وشيوخها ، مع حكايات وكرامات لبعضهم منها تنبؤهم له عن اسفاره والبلدان التي يزورها . ومن هؤلاء العلماء عماد الدين الكندي الذي « كادت عمامته ان تملأ المحراب» لعظمها، والشيخ خليفة ، وابو العباس المرسي ، وابو الحسن الشاذلي الشهير صاحب الصلاة المعروفة « بحزب البحر » .

ثم ترك الاسكندرية الى تَرَوجة ، فدمنهور ، ففوّا ، ثنية بني مُرشد حيث زار الشيخ المرشدي صاحب الكرامات ، ونام عنده .

ومن هناك سار الى مدينة النحرارية ، وقطع النيل الى أبيار ، وهي مدينة تُصنع بها « ثياب حسان تغلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها ، ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند اهلها . »

ومنها توجه الى مدينة « المحلّة الكبيرة » . وسار الى بلاد الصالحين ، بلاد برلُس ، ونسترو. فنزل في مدينة ملطين ، وشاهد بحيرة تنّيس ونسترو ، وهنا

---

١) افريقية : اي تونس .

٢) هو من أمراء الحفصيين (راجع ص ١٣ ، الحاشية ١).

خلط بين بحيرة برلُس (وهي بحيرة بوتيك القديمة) وبحيرة تنّيس (وهي بحيرة منزالح).

دمياط

ثم سافرت في ارض رملة الى مدينة دمياط . وهي مدينة فسيحة الاقطار ، متنوّعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب . . . (وهي) على شاطئ النيل ، واهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء ؛ وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل . وشجر الموز بها كثير يُحمَل ثمره الى مصر في المراكب . وغنمها سائمة هملًا بالليل والنهار . ولهذا يقال في دمياط : « سورها حُلوى ، وكلابها غنم ! » واذا دخلها احد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها ، الّا بطابع الوالي . فمَن كان من الناس معتبرًا ، طُبع له في قطعة كاغد[1] يستظهر به لحرّاس بابها . وغيرهم يُطبع على ذراعه ، فيستظهر به .

والطير البحري ، في هذه المدينة ، كثيرٌ متناهي السمن . وبها الالبان الجاموسية التي لا مثل لها في عذوبة الطعم ، وطيب المذاق وبها الحوت البوري[2] ، يُحمَل منها الى الشام ، وبلاد الروم[3] ، ومصر .

وبخارجها جزيرة بين البحر والنيل ، تُسمّى البرزخ ، بها مسجدٌ

---

١) كاغد : لفظة فارسية الاصل معناها القرطاس ، الورق .

٢) الحوت : في الاصل السمك ، وهو المراد هنا ، وقد غلب في الاستعمال على الكبير منه . البوري : نسبة الى بلدة بورة بمصر ، ضرب من السمك مستطيل اسطواني الشكل ، قويّ الزعانف ، واسع الفلوس مستدبرها ، يبلغ طوله السبعين سنتيمترًا . وهو يكثر في البحر المتوسط ، ويكون في المحيط الاطلنطي . ويُعرف منه نحو السبعين نوعًا .

٣) بلاد الروم : آسية الصغرى .

وزاوية[١] ، لقيت بها شيخهـــا المعروف بابن قُفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ، ومعه جماعة من الفقراء[٢] الفضلاء المتعبّدين الاخيار ، قطعوا ليلتهم صلاةً وقراءةً وذكرًا .

ودمياط هذه حديثة البناء . والمدينة القديمة هي التي خربها الافرنج على عهد الملك الصالح .[٣]

زاوية القرندرية

وبها زاوية الشيخ جمـــال الدين الساوي ، قدوة الطائفة المعروفة « بالقرندرية » وهم الذين يحلقون لحاهم ، وحواجبهم . ويسكن الزاوية في هذا العهد الشيخ فتح التـكروري .

كرامة الشيخ جمال الدين الساوي

يُذكر انه لما قصد مدينة دمياط ، لزم مقبرتها . وكان بها قاضٍ يُعرف بابن العميد . فخرج يوماً الى جنازة بعض الاعيان ، فرأى الشيخ جمال الدين بالمقبرة ، فقال له : « انت المبتدع ؟ » فقال له : « وانت القاضي الجاهل !

١) الزاوية : مقام الشيخ ؛ الجامع يكون فيه ملجأ الغرباء ؛ مدرسة يعلم فيها الامام القرآن ، والفقه ، والنحو .

٢) الفقراء : ج . الفقير : المتعبّد الذي يعيش من حسنات المؤمنين . واسم « الفقير » يُطلق في الهند على المتعبدين النسّاك من جميع الاديان .

٣) وهم ابن بطُوطة في قوله هذا ، فان الافرنج لم يخربوا مدينة دمياط . وهم لم يدخلوها الا مرّتين : سنة ١٢١٩ وسنة ١٢٤٩ . ولكنهم تركوها قائمة ، فخربها امراء مصر في منتصف تشرين الثاني ١٢٥٠ ، بعد خروج الافرنج منها بسنة ، خوفًا من ان يعودوا اليها .

تمرّ بدابتك بين القبور ، وتعلم ان حرمة الانسان ميتاً ، كحرمته حياً ! » فقال له القاضي : « واعظم من ذلك حلقُك لحيتك ! » فقال له : « إيّاي تعني ؟ » وزعق الشيخ ، ثم رفع رأسه ، فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة. فعجب القاضي ومن معه ، ونزل اليه عن بغلته . ثم زعق ثانيةً ، فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة . ثم زعق ثالثة ، ورفع رأسه ، فاذا هو بلا لحية ، كهيئته الاولى . فقبّل القاضي يده ، وتتلمذ له ، وبنى له زاوية حسنة ، وصحبه ايام حياته . ثم مات الشيخ فدفن بزاويته . ولما حضرت القاضي وفاته ، اوصى ان يدفن بباب الزاوية حتى يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ قبره .

مزار شطا — المنية — والي دمياط

وبخارج دمياط المزار المعروف بشَطَا ، وهو ظاهر البَرَكة ، يقصده اهل الديار المصرية . وله ايام في السنة معلومة لذلك . وبخارجها ايضاً بين بساتينها ، موضع يُعرف بالمُنية ، فيه شيخ من الفضلاء ، يُعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته وبتُّ عنده .

وكان بدمياط ، ايام اقامتي بها ، والٍ يُعرف بالمحسني من ذوي الاحسان والفضل ، بنى مدرسة على شاطئ النيل ، بها كان نزولي في تلك الايام ، وتأكدت بيني وبينه مودّة .

مدينة فارسكور

ثم سافرت الى مدينة فارسكور ، وهي مدينة على ساحل النيل ، ونزلت بخارجها . ولحقني هنالك فارس وجّهه اليّ الامير المحسني فقال لي : « ان الامير سأل عنك ، وعرف بسيرتك ، فبعث اليك بهذه النفقة . » ودفع اليّ جملة دراهم ، جزاه الله خيراً !

مدينة أشمون الرمّان – مدينة سَمَنُّود

ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمّان، ونُسبت الى الرمّان لكثرته بها، ومنها يُحمل الى مصر. وهي مدينة عتيقة كبيرة، على خليج من خلج النيل، ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها. فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب، وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة. وبهذه البلدة قاضي القضاة، ووالي الولاة.

ثم سافرت منها الى مدينة سَمَنُّود، وهي على شاطئ النيل، كثيرة المراكب، حسنة الاسواق، وبينها وبين المحلّة الكبيرة ثلاثة فراسخ.

من سَمَنُّود الى مصر

ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدًا الى مصر، ما بين مدائن وقرى منتظمة، متصل بعضها ببعض. ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد، لانه مهما اراد النزول بالشاطئ نزل، للوضوء والصلاة، وشراء الزاد، وغير ذلك. والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر، ومن مصر الى مدينة اسوان، من الصعيد.

مصر : وصفها

ثم وصلت الى مدينة مصر، امّ البلاد، وقرارة فرعون ذي الاوتاد[1] ذات الاقاليم العريضة، والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحطّ رحل الضعيف

---

١) قرارة: مستقرّ، مقام – ذو الاوتاد: نعت ينعت به القرآن احد الفراعنة فيقول: «كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد، وفرعون ذو الاوتاد» (٣٨[ص] ١١) و« فرعون ذي الاوتاد» (٨٩[الفجر]٩)، وذلك أنّ العرب كانوا يزعمون ان فرعون كان يربط من شاء تعذيبه الى اربعة اوتاد.

والقادر وبها ما شئتَ من عالمٍ وجاهلٍ ، وجادٍ وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه ، وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف . تموج موج البحر بسكّانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها . شبابها يجدّ على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح من منزل السعد . قهرت قاهرتها الامم ، وتملّكت ماوكها نواحي العرب والعجم . ولها خصوصية النيل التي جلّ خطرها ، واغناها ان يستمدّ القَطرَ قُطرها . وارضها مسيرة شهر لمجدّ السير ، كريمة التربة ، مؤنسة لذوي الغربة .

ويقال ان بمصر من السقّائين على الجمال اثني عشر الف سقّاء ؛ وان فيها ثلاثين الف مُكارٍ ؛ وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفا ، للسلطان والرعية ، تمرّ صاعدة الى الصعيد ، ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط ، بانواع الخيرات والمرافق . وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر ، الموضع المعروف بالروضة ، وهو مكان النزهة والتفرّج . وبه البساتين الكثيرة الحسنة . واهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو ، شاهدت بها مرّة فرجة ، بسبب برء الملك الناصر من كسرٍ اصاب يده ، فزيّن كل اهل سوق سوقهم ، وعلّقوا بحوانيتهم الحلل والحلي وثياب الحرير ، وبقوا على ذلك اياماً .

ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس ، والمارستان ، والزوايا

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر ، شهير الذكر ، تُقام فيه الجمعة . والطريق يعترضه من شرق الى غرب . وبشرقه الزاوية حيث كان يدرّس الامام ابو عبدالله الشافعي .

واما المدارس بمصر فلا يحيط احد بحصرها لكثرتها.

وامّا المارستان[1] الذي بين القصرين، عند تربة الملك المنصور قلاوون، فيعجز الواصف عن محاسنه. وقد أُعدّ فيه من المرافق، والادوية، ما لا يُحصر. ويُذكر أن مجباه[2] الف دينار كل يوم.

وامّا الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق[3]، واحدتها خانقة. والامراء في مصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معيّنة لطائفة من الفقراء، واكثرهم الاعاجم، وهم اهل ادب ومعرفة بطريقة التصوّف. ولكل زاوية شيخ، وحارس. وترتيب امورهم عجيب.

ومن عوائدهم في الطعام انه يأتي خديم الزاوية الى الفقراء صباحاً، فيعيّن له كل واحد ما يشتهيه من الطعام. فاذا اجتمعوا للاكل، جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه، في اناء على حدة، لا يشاركه فيه احد. وطعامهم مرّتان في النهار. ولهم كسوة الشتاء، وكسوة الصيف، ومرتّب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر الى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة، والصابون لغسل اثوابهم، والأجرة لدخول الحمّام، والزيت للاستصباح. وهم اعزاب. وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترَط عليهم حضور الصلوات الخمس، والمَبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبّة داخل الزاوية.

ويلي ذلك ذكر عاداتهم في الصلاة، وذكر قرافة مصر ومزاراتها، منها تربة الامام محمد بن ادريس الشافعي.

---

١) المارستان: المستشفى.

٢) مجباه: دخله.

٣) الخوانق: تقابل الاديار عند النصارى.

ذكر نيل مصر

ونيلُ مصر يفضل انهار الارض عذوبةَ مذاق ، واتساعَ قَطر، وعظمَ منفعة. والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ، ليس في المعمور مثلها . ولا يعلم نهر يُزدرَع عليه ما يُزدرَع على النيل ؛ وليس في الارض نهر يُسمّى بحرًا غيره . قال الله تعالى : « فاذا خِفتِ عليه ، فألقيه في اليمّ »[1] فسمّاه يمًّا وهو البحر . . . ومجرى النيل من الجنوب الى الشمال خلافاً لجميع الانهار.

ومن عجائبه ان ابتداء زيادته في شدّة الحرّ ، عند نقص الانهار وجفوفها ؛ وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها . ونهر السند مثله في ذلك ، وسيأتي ذكره. واول ابتداء زيادته في حزيران ، وهو يونيه. فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً ، تمّ خراج السلطان ؛ فان زاد ذراعاً كان الخصب في العام ، والصلاح التام ؛ فان بلغ ثمانية عشر ذراعاً ، اضرّ بالضياع واعقب الوباء . وان نقص ذراعاً عن ستة عشر ، نقص خراج السلطان ؛ وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضر الشديد . . .

والنيل يفترق ، بعد مسافة من مصر ، على ثلاثة اقسام. ولا يعبر نهر منها الا في السفن شتاء وصيفاً. واهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل ، فاذا مدّ اترعها ففاضت على المزارع.

ذكر الاهرام والبرابي[2]

وهي من العجائب المذكورة على مرّ الدهور. وللناس فيها كلام كثير

---

١) « وأوحينا الى أم موسى أن أرضِعيه ، فاذا خِفت عليه فالقيه في اليم » (القرآن ٢٨ [القصص]٦).

٢) البرابي : ج . البربي : من القبطية « بيربي » : الهيكل او المعبد.

وخوض في شأنها ، واوَّليَّة بنائها . ويزعمون ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الاول ، الساكن بصعيد مصر الاعلى ، ويسمَّى خُنوخ وهو ادريس (عم) . وانه اول من تكلّم في الحركات الفلكية ، والجواهر العلويّة ، واول من بنى الهياكل ، ومجّد الله تعالى فيها . وانه انذر الناس بالطوفان ، وخاف ذهاب العلم ، ودروس الصنائع ، فبنى الاهرام والبرابي ، وصوّر فيها جميع الصنائع والآلات ، ورسم العلوم فيها لتبقى مخلّدة . ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة مَنوف ، وهي على بريد من الفُسطاط . فلما بُنيت الاسكندرية ، انتقل الناس اليها وصارت دار العلم والملك ، الى ان اتى الاسلام ، فاختطَّ عمرو بن العاص ، (رضه) ، مدينة الفُسطاط ، فهي قاعدة مصر الى هذا العهد .

والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهي السموّ ، مستدير ، متّسع الاسفل ، ضيّق الاعلى ، كالشكل المخروط ؛ ولا ابواب لها ، ولا تعلم كيفية بنائها . ومما يُذكر في شأنها ان ملكاً من ملوك مصر ، قبل الطوفان ، رأى رؤيا هالته ، واوجبت عنده انه بنى تلك الاهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعاً للعلوم ولجثّة الملوك . وانه سأل المنجّمين هل يُفتح منها موضع ، فاخبروه انها تُفتح من الجانب الشمالي ، وعيّنوا له الموضع الذي تُفتح منه ، ومبلغ الإنفاق في فتحه . فأمر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما اخبروه انه ينفق في فتحه . واشتدّ في البناء ، فأتمّه في ستّين سنة . وكتب عليها : « بنينا هذه الاهرام في ستين سنة ، فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة ، فان الهدم أيسر من البناء ! » فلما افضت الخلافة الى امير المؤمنين المأمون ، اراد هدمها ؛ فاشار عليه بعض مشايخ مصر ان لا يفعل . فلجّ في ذلك وأمر ان تفتح من الجانب الشمالي

فكانوا يوقدون عليها النار ، ثم يرشّونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق ، حتى فتحت الثلمة التي بها الى اليوم . ووجدوا بازاء الثقب مالاً ، امر امير المؤمنين بوزنه ، فحصر ما انفق في النقب ، فوجدهما سواء . فطال عجبه من ذلك . ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعاً .

ويلي ذلك ذكر سلطان مصر ، وهو الملك الناصر ابو الفتح محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي ، وبرّه الجزيل ، وذكر امراء مصر ، وقضاتها ، وبعض علمائها واعيانها ، منهم شمس الدين الاصبهاني « إمام الدنيا في المعقولات » . ثم يذكر رتبة المحمل . ويخرج ابن بطّوطة من مصر ، فيمرّ بدير الطين ، ومنية القائد ، وبوش ، ودَلاص ، المشهورَين بالكتان ، وبيا ، والبهنسا حتى يصل الى

منية ابن خصيب

وهي مدينة كبيرة الساحة ، متّسعة المساحة ، مبنية على شاطئ النيل ، وحقّ حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل . بها المدارس والمشاهد ، والزوايا والمساجد . وكانت في القديم منية لخصيب ، عامل مصر .

حكاية خصيب

يُذكر ان احد الخلفاء من بني العبّاس ، رضي الله عنهم ، غضب على اهل مصر ، فآلى ان يولّي عليهم احقر عبيده ، واصغرهم شأناً ، قصداً لارذالهم ، والتنكيل بهم . وكان خصيب احقرهم ، اذ كان يتولّى تسخين الحمّام ، فخلع عليه وأمّره على مصر ، وظنّ انه يسير فيهم سيرة سوء ، ويقصدهم بالاذاية ، حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعزّ . فلما استقرّ خصيب بمصر ، سار في اهلها احسن سيرة ، وشُهر بالكرم والإيثار . فكان اقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه ، فيجزل العطاء لهم ، ويعودون الى بغداد شاكرين لما اولاهم .

وان الخليفة افتقد بعض العبّاسيين ، وغاب عنه مدة ، ثم اتاه . فسأله عن مغيبه ، فاخبره انه قصد خصيباً ، وذكر له ما اعطاه خصيب ؛ وكان عطاء جزيلًا . فغضب الخليفة ، وامر بسمل عيني خصيب ، واخراجه من مصر الى بغداد ، وان يُطرح في اسواقها . فلما ورد الامر بالقبض عليه ، حِيل بينه وبين دخول منزله . وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن ، فخبَّأها عنده ، وخاطها في ثوب له ليلًا . وسُملت عيناه ، وطرح في اسواق بغداد .

فمرّ به بعض الشعراء . فقال له : « يا خصيب ، اني كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحاً لك بقصيدة . فوافقت انصرافك عنها . وأُحبُّ ان تسمعها . » فقال : « كيف بسماعها ، وانا على ما تراه ؟ » فقال : « انما قصدي سماعك لها . واما العطاء فقد اعطيتَ الناس ، واجزلت ، جزاك الله خيرًا ! » قال : « فافعل » . فانشده :

أنتَ الخصيب ، وهذه مصرُ ؛ فتدفّقا ، فكلاكما بحرُ !

فلما اتى على آخرها ، قال له : « افتق هذه الخياطة . » ففعل ذلك . فقال له : « خذ الياقوتة . » فأبى . فأقسم عليه ان يأخذها . فأخذها ، وذهب بها الى سوق الجوهريين . فلما عرضها عليهم ، قالوا له : « ان هذه لا تصلح الّا للخليفة . » فرفعوا امرها الى الخليفة . فأمر الخليفة باحضار الشاعر ، واستفهمه عن شأن الياقوتة ، فأخبره بخبرها . فتأسف على ما فعله بخصيب ، وامر بمثوله بين يديه ، واجزل له العطاء ، وحكّمه فيما يريد . فرغب ان يعطيه هذه المنية ؛ ففعل ذلك . وسكنها خصيب الى ان توفي ، واورثها عقبه الى ان انقرضوا .

وسافر من منية ابن خصيب الى مَنْلَوي وبها « احدى عشرة معصرة للسكر ومن عوائدهم انهم لا يمنعون فقيرًا من دخول معصرة منها . فيأتي الفقير بالخبزة

الحارّة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ، ثم يخرجها ، وقد امتلأت سكرًا فينصرف بها .» وسافر من منلوي الى منفلوط ، فالى اسيوط ، فالى

إخميم

وهي مدينة عظيمة اصيلة البنيان ، عجيبة الشأن. بها البربي المعروف باسمها ، وهو مبني بالحجارة ، في داخله نقوش وكتابة للاوائل لا تُفهم في هذا العهد ، وصور الافلاك والكواكب. ويزعمون انها بُنيت،والنسر الطائر ببرج العقرب . وبها صور الحيوانات وسواها . وعند الناس في هذه الصور اكاذيب لا يُعرّج عليها .

ثم زار مدينة هُوّ ، فمدينة قنا ، فمدينة قُوص ، فالأقصر ، فأرمَنْت ، فأسْنا ، فأدفُو ، فالعطواني. ومنها اكترى الجمال للسفر الى عيذاب.

في الصحراء

وسافرنا مع طائفة من العرب تُعرف بدغيم ، في صحراء لا عمارة بها، الا انها آمنة السبل . وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا ، حيث قبر وليّ الله ابي الحسن الشاذلي . . وارضها كثيرة الضباع . ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع . ولقد قصدت رحلي ضبع منها ، فمزّقت عِدلًا كان به ، واجترّت منه جراب تمر وذهبت به. فوجدناه ، لما اصبحنا ، ممزّقًا مأكولًا معظم ما كان فيه .

عَيذاب

ثم لما سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا الى مدينة عَيذاب . وهي مدينة كبيرة ، كثيرة الحوت ، واللبن . ويُحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر. واهلها البُجاة ، وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفرًا،ويشدّون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها اصبعاً . وهم لا يورثون

البنات . وطعامهم البان الابل . ويركبون المهاري ويسمّونها الصُّهب . وثلث المدينة للملك الناصر ، وثلثاها لملك البُجاة ، وهو يُعرف بالَحدْربي . . .

تعذُّر السفر بحرًا

ولما وصلنا الى عيذاب ، وجدنا الَحدْربي ، سلطان البْجاة ، يحارب الاتراك[1] ، وقد خرق المراكب ، وهرب الترك امامه . فتعذَّر سفرنا في البحر . فبِعنا ما كنّا اعددناه من الزاد ، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الى صعيد مصر .

---

١) الاتراك : يريد بهم المماليك .

الفصل الثالث

السفر الى بلاد الشام

فلسطين — لبنان — سورية

ترك ابن بطوطة مصر ، قاصدًا بلاد الشام في اواسط شعبان ٧٢٦ (تموز ١٣٢٦) فمرّ ببلبيس ، والصالحية ، والسوادة ، والورّادة ، والمطيلب ، والعريش ، والخروبة ، الى ان وصل الى بلدة على الحدود تدعى

قطيا

وبها تؤخذ الزكاة من التجار ، وتفتّش امتعتهم ، ويُبحث عمّا لديهم اشدّ البحث . وفيها الدواوين ، والعمّال ، والكتّاب ، والشهود . ومجباها في كل يوم الف دينار من الذهب . ولا يجوز عليها احد الى الشام الّا ببراءة من مصر ، ولا الى مصر الّا ببراءة من الشام ، احتياطاً على اموال الناس ، وتوقّياً من الجواسيس العراقيين . وطريقها في ضمان العرب قد وُكِّلوا بحفظه . فاذا كان الليل ، مسحوا على الرمل لا يبقى به اثر . ثم يأتي الامير صباحاً ، فينظر الى الرمل ، فان وجد به اثرًا ، طلب العرب باحضار مؤثره . فيذهبون في طلبه ؛ فلا يفوتهم ؛ فيأتون به الامير ، فيعاقبه بما شاء .

ثم سار الى غزّة ، فمدينة الخليل حيث شاهد قبور ابراهيم، واسحق ، ويعقوب وازواجهم ، وقبر يوسف . وشاهد بحيرة لوط وقبره ، وقبر فاطمة بنت الحسين ابن علي . ومرّ على تربة يونس ، الى ان وصل الى

بيت لحم

موضع ميلاد عيسى، عليه السلام ، وبه اثر جذع النخلة ، وعليه عمارة كثيرة . والنصارى يعظّمونه اشدّ التعظيم ، ويضيفون من نزل به .

بيت المقدس

ثم وصلنا الى بيت المقدس شرّفه الله . . . والبلدة كبيرة ، منيفة ، مبنية بالصخر المنحوت . وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن ايوب، جزاه الله عن الاسلام خيرًا ، لما فتح هذه المدينه هدم بعض اسوارها . ثم استنقض الملك الظاهر هَدْمه ، خوفاً ان يقصدها الروم ، فيمتنعوا بها . ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدّم . وجلب لها الماء ، في هذا العهد ، الامير سيف الدين تنكيز ، امير دمشق .

ذكر المسجد المقدّس

وهو من المساجد العجيبة ، الرائقة ، الفائقة الحسن . يقال انه ليس على وجه الارض مسجد اكبر منه ، وان طوله من شرق الى غرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية[1] ، وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعاً . وله ابواب كثيرة في جهاته الثلاث .

---

١) الذراع المالكية : طولها ٣٢ اصبعاً .

واما الجهة القبلية فلا اعلم بها إلا بابا واحـدًا ، وهو الذي يدخل منه الإمام . والمسجد كله فضاء غير مسقَّف إلا المسجد الاقصى فهو مسقف في النهاية من إحكام العمل ، واتقان الصنعة ، مموَّه بالذهب والاصبغة الرائقة . وفي المسجد مواضع سواه مسقَّفة .

ذكر قبة الصخرة

وهي من اعجب المباني ، واتقنها ، واغربها شكلًا . قد توفّر حظّها من المحاسن ، واخذت من كل بديعة بطرف . وهي قائمة على نشز[1] في وسط المسجد ، يصعد اليه في درج رخام . ولها اربعة ابواب ، والدائر بها مفروش بالرخام ايضاً ، محكم الصنعة . وكذلك داخلها . وفي ظاهرها وباطنها من انواع الزواقة ، ورائق الصنعة ، ما يُعجز الواصف . واكثر ذلك مغشّى بالذهب . فهي تتلألأ نورًا ، وتلمع لمعان البرق . يحار بصر متأمّلها في محاسنها ، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها . وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار . فان النبي (صلعم) عرج منها الى السماء . وهي صخرة صماء ، ارتفاعها نحو قامة . وتحتها مغارة ، في مقدار بيت صغير ، ارتفاعها نحو قامة ايضاً ، يُنزل اليها على درج . وهنالك شكل محراب . وعلى الصخرة شباكان اثنان ، محكما العمل ، يغلقان عليها : احدهما ، وهو الذي يلي الصخرة ، من حديد بديع الصنعة ؛ والثاني من خشب .

وفي القبة درقة كبيرة من حديد ، معلّقة هنالك . والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب (رضه) .

---

١) نشز : مرتفع .

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

يذكر منها البنية التي صعد منها المسيح الى السماء ، والكنيسة التي فيها قبر مريم ، وكنيسة قبر المسيح . وينتقل الى ذكر بعض فضلاء القدس.

ثم رحل الى عسقلان ، فمدينة الرملة ، التي تدعى فلسطين ، فمدينة نابلس ، ويذكر محصولاتها من الزيتون والزيت وحلواء الخروب ؛ فعجلون ، فالغور حيث قبر ابي عبيدة بن الجرّاح ، فالقُصير ، « وبه قبر معاذ بن جبل ».

عكّة

ثم سافرت الى الساحل فوصلت الى مدينة عكّة ، وهي خراب . وكانت عكّة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ، ومرسى سفنهم . وتشبه قسطنطينية العظمى . وبشرقيها عين ماء تُعرف بعين البقر ، يُقال ان الله تعالى اخرج منها البقرة لآدم ، عليه السلام . وينزل اليها في درج ، وكان عليها مسجد بقي منه محرابه . وبهذه المدينة قبر صالح ، عليه السلام.

صور

ثم سافرت منها الى مدينة صور ، وهي خراب. وبخارجها قرية معمورة واكثر اهلها ارفاض . ولقد نزلت بها مرّة على بعض المياه اريد الوضوء ، فاتى بعض اهل تلك القرية ليتوضأ ؛ فبدأ بغسل رجليه ، ثم غسل وجهه ، ولم يتمضمض ولا استنشق . ثم مسح بعض رأسه . فأخذت عليه في فعله فقال لي : « ان البناء انما يكون ابتداؤه من الاساس ».

ومدينة صور هي التي يُضرب بها المثل في الحصانة والمَنعة. لان البحر

محيط بها من ثلاث جهاتها ، ولها بابان : احدهما للبرّ ، والثاني للبحر . ولبابها الذي يشرع للبرّ اربعة فُصْلان كلها في ستائر محيطة بالباب . واما الباب الذي للبحر فهو بين برجين عظيمين . وبناؤها ليس في بلاد الدنيا اعجب ولا أغرب شأناً منـــه . لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ، وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور ، وترسو هنـــالك . وكان ، فيما تقدّم ، بين البرجين سلسلة حديد معترضة ، لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج الّا بعد حطّها . وكان عليها الحرّاس والامناء ، فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج ، الّا على علم منهم . وكان لعكة ايضاً ميناء مثلهـــا ، ولكنها لم تكن تحمل الا السفن الصغار .

صيدا

ثم سافرت منها الى مدينة صيدا . وهي على ساحل البحر ، حسنة ، كثيرة الفواكه ، يُحمل منها التين ، والزبيب ، والزيت ، الى بلاد مصر . نزلت عند قاضيها ، كمال الدين الاشموني المصري ، وهو حسن الاخلاق ، كريم النفس .

طبريا : الحمامات — قبور الانبياء

ثم سافرت منها الى مدينة طبريا . وكانت فيما مضى مدينـــة كبيرة ضخمة . ولم يبقَ منها الا رسوم تُنبئ على ضخامتها ، وعظم شأنها . وبها الحمّامات العجيبة ، لها بيتان : احدهما للرجال ، والثاني للنساء ، وماؤها شديد الحرارة . ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ ، وعرضها ازيد من ثلاثة فراسخ .

وبطبرية مسجد يُعرف بمسجد الانبياء . فيه قبر شعيب ، عليه السلام ؛

وبنته زوج موسى الكليم ، عليه السلام ؛ وقبر سليمان ، عليه السلام ؛ وقبر يهوذا ، وقبر روبيل ، صلوات الله وسلامه على نبيّنا وعليهم .

وقصدنا منها زيارة الجبّ الذي أُلقي فيه يوسف، عليه السلام ؛ وهو في صحن مسجد صغير ، وعليه زاوية . والجبّ كبيرٌ عميق ، شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر . واخبرنا قَيِّمه ان الماء ينبع منه ايضاً .

بيروت – كرك نوح

ثم سرنا الى مدينة بيروت . وهي صغيرة ، حسنة الاسواق . وجامعها بديع الحسن . وتُجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد .

وقصدنا منها زيارة قبر ابي يعقوب يوسف ، الذي يزعمون انه من ملوك المغرب . وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز . وعليه زاوية يُطعم بها الوارد والصادر . ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف ؛ وقيل السلطان نور الدين . وكان من الصالحين ، ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها . . .

طرابلس

ثم وصلت الى مدينة اطرابلس . وهي احدى قواعد الشام ، وبلدانها الضخام . تخترقها الانهار ، وتحفها البساتين والاشجار ، ويكتنفها البحر بمرافقه العميمة ، والبرّ بخيراته المقيمة . ولها الاسواق العجيبة ، والمسارح الخصيبة . والبحر على ميلين منها . وهي حديثة البناء . واما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر ، وتملكها الروم زماناً . فلما استرجعها الملك الظاهر ، خربت ، واتخذت هذه الحديثة .

وبهذه المدينة نحو اربعين من أمراء الاتراك . واميرهـا طيلان[١] الحاجب ، المعروف بتلك الامراء ، ومسكنه منها بالدار المعروفة بدار السعادة . ومن عوائده انه يركب في كل يوم اثنين وخميس ، ويركب معه الامراء والعساكر . ويخرج الى ظاهر المدينة . فاذا عاد اليها وقارب الوصول الى منزله ، ترّجل الامراء ، ونزلوا عن دوابهم ، ومشوا بين يديه حتي يدخل منزله ؛ وينصرفون . وتضرب الطَبلخانة[٢] عند دار كل امير منهم ، بعد صلاة المغرب من كل يوم ؛ وتوقد المشاعل . . .

وبهذه المدينة حمّامـات حسان منها : حمّام إلقاضي القرمي ، وحمّام سندمور .

وكان سندمور امير هذه المدينة . ويذكر عنه اخبار كثيرة في الشدّة على اهل الجنايات ، منها ان امرأة شكت اليه بان احد مماليكه الخواص تعدّى عليها ، في لبن كانت تبيعه ، فشربه . ولم تكن لها بيّنة ، فامر به فوُسط[٣] ، فخرج اللبن من مُصرانه . وقد اتفق مثل هـذه الحكاية للعتريس ، احد امراء الملك الناصر ، ايام امارته على عيذاب . واتفق الملك كبك ، سلطان تركستان[٤] .

حصن الاكراد

ثم سافرت من اطرابلس الى حصن الاكراد ، وهو بلدٌ صغير ، كثير الاشجار والانهار ، باعلى تلّ . وبه زاوية تُعرف بزاوية الإبراهيمي ،

---

١) طَيلان : ويسمّيه بعضهم : طينال .
٢) الطَبْلخانة : الموسيقى العسكرية .
٣) وُسّط : ضُرب في وسطه .
٤) وروي مثلها عن بعض امراء الشرق والغرب .

نسبة الى بعض كبراء الامراء . ونزلت عند قاضيها ، ولا احقق الآن اسمه .

حمص

ثم سافرت الى مدينة حمص . وهي مدينة مليحة ، ارجاؤها مونقة ، واشجارها مورقة ، وانهارها متدفقة ، واسواقها فسيحة الشوارع ، وجامعها متميّز بالحسن الجامع ، وفي وسطه بركة ماء . واهل حمص عرب لهم فضل وكرم . وبخارج هذه المدينة قبر خالد بن الوليد ، سيف الله ورسوله ، وعليه زاوية ومسجد . وعلى القبر كسوة سوداء .

حماة

ثم سافرت منها الى مدينة حماة ، احدى امهات الشام الرفيعة ، ومدائنها البديعة ، ذات الحسن الرائق ، والجمال الفائق . تحفها البساتين والجنّات ، عليها النواعير كالافلاك الدائرات . يشقّها النهر العظيم المسمّى بالعاصي . ولها ربض سُمّي بالمنصورية ، اعظم من المدينة ؛ فيه الاسواق الحافلة ، والحمّامات الحسان . وبحماة الفواكه الكثيرة . ومنها المشمش اللوزي اذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة .

معرّة النعمان — سرمين

ثم سافرت الى مدينة المعرّة التي يُنسب اليها الشاعر ابو العلاء المعرّي ، وكثير سواه من الشعراء . (وهي) مدينة صغيرة حسنة ، اكثر شجرها التين والفستق . ومنها يُحمل الى مصر والشام . . .

ثم سرنا منها الى مدينة سرمين . وهي حسنة كثيرة البساتين ، واكثر شجرها الزيتون . وبها يُصنع الصابون الآجرّي ، ويُجلب الى مصر والشام . ويُصنع بها ايضاً الصابون المطيّب لغسل الايدي ، ويصبغونه بالحمرة والصفرة . ويُصنع بها ثياب حسان تُنسب اليها .

وأهلهـــا سبأبون(١) ، يبغضون «العشرة»(٢) . ومن العجب انهم لا يذكرون لفظ «العشرة» وينادي سماسرتهم بالاسواق على السِلَع ، فاذا بلغوا الى العشرة قالوا : «تسعة وواحدًا» . . . وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ، ولم يجعلوها عشرًا قياماً بمذهبهم القبيح .

حلب

ثم سرنا الى مدينة حلب ، المدينة الكبرى ، والقاعدة العظمى . قال ابو الحسين بن جُبير ، في وصفها :

«قدرها خطير ، وذكرها في كل زمان يطير ، خطّابها من الملوك كثير ، ومحلّها من النفوس اثير . فكم هاجت من كفاح ، وسُلّ عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، تنزّهت حصانةً ان تُرام او تُستطاع . منحوتة الارجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء . قد طاولت الايام والاعوام ، وشيّعت الخواصّ والعوامّ . اين امراؤها الحمدانيون وشعراؤها ؟ فني جميعهم ولم يبقَ الا بناؤها . فيا عجبا للبلاد تبقى وتذهب املاكُها ، ويهلكون ولا يقضى هلاكُها ، وتُخطب بعدهم فلا يتعذّر إملاكُها ، وتُرام فيتيسّر باهون شيء ادراكُها ! هذه حلب ، كم ادخلت من ملوكها في خبر كان ، ونسخت صرف الزمان بالمكان ! أُنِثَ اسمها فتحلّت بحلية الغوان ، ودانت بالغدر فيمن دان ، وتجلّت عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان . هيهات ! سيهرم شبابها ، ويُعدم خطابها ، ويُسرع فيها بعد حين خرابها !»(٣)

وقلعة حلب تُسمّى الشهباء ، وبداخلها جُبّان ينبع منهما الماء ، فلا تخاف الظماء . ويطيف بها سوران ، وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء .

---

١) سبأبون : كثيرو الشتم .
٢) العشرة : اصحاب محمد العشرة الاولون .
٣) رحلة ابن جُبير (de Coeje) – ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٢٥٠ – ٢٥١

وسورهـا متداني الابراج ؛ وقد انتظمت بها العلاليّ العجيبة ، المفتّحة الطيقان ، وكل برج منها مسكون. والطعام لا يتغيّر بهذه القلعة على طول العهد. وبها مشهد يقصده بعض الناس ، يُقال ان الخليل ، عليه السلام ، كان يتعبّد به . وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك بن طوق ، التي على الفرات ، بين الشام والعراق.

ولما قصد قازان ، طاغية التتر ، مدينة حلب ، حاصر هذه القلعة اياماً ، ونكص عنها خائباً.

ويقال في مدينة حلب : « حلب ابراهيم . » لان الخليل ، صلوات الله على نبيّنا وعليه وسلامه ، كان يسكنها . وكانت له الغنم الكثيرة ، فكان يسقي الفقراء والمساكين والوارد والصادر من البانها . فكانوا يجتمعون ويسألون : « حلب ابرهيم ؟ » فسمّيت بذلك . وهي من اعزّ البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع ، واتقان الترتيب ، واتساع الاسواق ، وانتظام بعضها ببعض . واسواقها مسقّفة بالخشب ، فأهلها دائماً في ظلٍّ ممدود . وقيساريّتها لا تُماثَل حسناً وكِبَرًا ، وهي تحيط بمسجدها . وكل سِماط منها محاذٍ لبابٍ من ابواب المسجد . ومسجدها الجامع من اجمل المساجد ، وفي صحنه بركة ماء ، ويطيف به بلاط عظيم الاتساع . ومنبرها بديع العمل ، مرصّع بالعاج والابنوس . وبقرب جامعها مدرسة مناسبة له في حسن الوضع ، واتقان الصنعة ، تُنسب لامراء بني حمدان[1] . وبالبلد سواها ثلاث مدارس ، وبها مارستان.

---

١) بنو حمدان : امراء عربيّو الاصل حكموا مقاطعة حلب وما بين النهرين في العصر العباسي الثالث من سنة ٩٢٩ الى سنة ١٠٠٣ . واشهرهم سيف الدولة (٩٤٤–٩٦٧) ، ممدوح المتنبي.

واما خارج المدينة فهو بسيط ، أفيح ، عريض ، به المزارع العظيمة وشجرات الاعناب منتظمة به ، والبساتين على شاطئ نهرها ، وهو النهر الذي يمرّ بحماة ، ويسمّى العاصي[1] . وقيل انه سمي بذلك لانه يخيّل لناظره ان جريانه من اسفل الى علوّ . والنفس تجد في خارج مدينة حلب انشراحاً وسروراً ونشاطاً لا يكون في سواها . وهي من المدن التي تصلح للخلافة .

ثم يمرّ بمدينة تيزين الى انطاكية :

انطاكية

هي مدينة عظيمة اصيلة . وكان عليها سور محكم لا نظير له في اسوار بلاد الشام . فلما فتحها الملك الظاهر هدم سورها . وانطاكية كثيرة العمارة، ودورها حسنة البناء، كثيرة الاشجار والمياه . وبخارجها نهر العاصي . وبها قبر حبيب النجار (رضه) وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر . وشيخها الصالح المعمّر محمد بن علي ، سنّه تنيف على المائة ، وهو ممتّع بقوّته ، دخلت عليه مرّة في بستان له ، وقد جمع حطباً ورفعه على كاهله ليأتي به منزله بالمدينة . ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين ، الا انه محدوب الظهر ، لا يستطيع النهوض . ومن يراهما يظن الوالد منهما ولداً ، والولد والداً .

---

١) هذا خطأ ظاهر لان العاصي لا يمرّ في حلب . اما نهر هذه المدينة فاسمه القويق .

رأي الاستاذ سامي الكيالي

« الحق انه مجهود عظيم جداً هذا الذي توفر له الاديب الفاضل الاستاذ فؤاد افرام البستاني باخراج هذه السلسلة الضخمة التي ضمت دراسات قيمة ومنتخبات مختارة لاكابر شعراء العرب المبرزين وادبائهم الممتازين . صدرت « الروائع » اول ما صدرت اجزاء متفرقة في مدد متفاوتة ما كان يظن ان الاستاذ سيمضي بعمله الى ان تصبح في يوم قريب ثروة ثمينة وقنية غالية في ادبنا العربي لا يستغني عنها الطالب والمتأدب والاديب . ورغم ما في ادبنا العربي من فيض وقوة فان كتبه القديمة مشوشة مضطربة تحتاج الى هذه الايادي المنسقة والعقول الخصبة المفكرة التي نعمت بادب الغرب وتذوقت جماله لتتولى تنظيم ادبنا وتصنيفه على طراز آداب الامم الحية . ولا شك ان الاستاذ البستاني كان في طليعة شبابنا المثقف الذي انتهى الى هذا العمل المثمر المنتج فخدم الآداب العربية خدمة غير منكورة ومهد لناشئتنا اقرب السبل لدراسة الادب العربي ، بل مهد لهم ان يذوقوا جماله ويستطيبوا روائعه وان لا ينفروا منه الى غيره من الآداب . وقد اصدر للآن ما يقرب من اربعين جزءاً كلها طريف مفيد ونتيجة درس وبحث وفهم . والاستاذ ماضٍ في عمله الذي سينتهي به الى اتمام دراساته عن اظهر ادباء العربية وشعرائها قديماً وحديثاً . فنشكر للاديب المفكر عمله ، ونقدر له جهده الموفق ، وننصح كل محب للادب ان لا يفوته اقتناء هذه المجموعة المفيدة .»

الحديث ، حلب ، تموز ١٩٣٦ ، ص ٤٥٣

الروائع

سلسلة ابحاث في الادب، ومنتخبات من اشهر اعلامه

السلسلة الخامسة

تظهر قريباً

٤١ — ابراهيم اليازجي : في الادب واللغة : ١

٤٢ — ابراهيم اليازجي : في الادب واللغة : ٢

٤٣ — ابراهيم اليازجي : فصول علمية

٤٤ — سليمان البستاني : مقدمة الإلياذة

٤٥ — سليمان البستاني : إلياذة هوميروس : ١

٤٦ — سليمان البستاني : إلياذة هوميروس : ٢

٤٧ — احمد شوقي : مدائح ومراثٍ منتخبة

٤٨ — احمد شوقي : اجتماعيّات واوصاف شتّى

٤٩ — احمد شوقي : مشاهد تمثيلية

٥٠ — عبد الله البستاني : فصول في اللغة

٧٥ غ. ل.